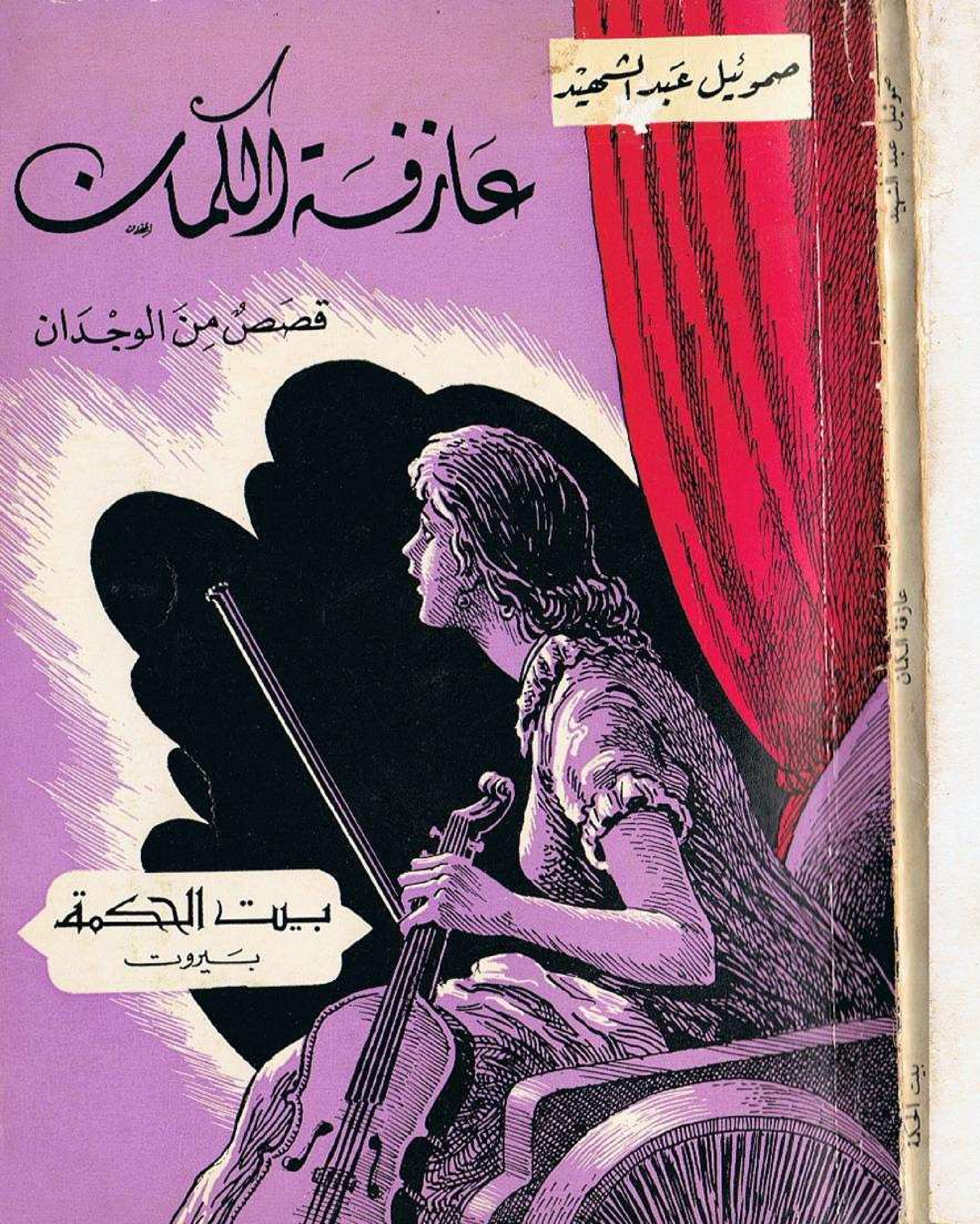


منشوراتنا القصصية

يصدرها: بيت الحكمة - بيروت

١	يا بياع السمسمية	لجوزفين وانطوان مسعود
٢	ابو الخيمة الزرقاء	لجوزفين وانطوان مسعود
٣	حدثني يا ابي	لكامل العبد الله
٤	اسرى الغابة	لانطوان مسعود
٥	ملح ودموع	لانطوان مسعود
٦	يوم عاد أبي	لرشاد دارغوث
٧	صندوق أم محفوظ	لروز غريب
٨	جدتي	لجبران مسعود
٩	عنب تشرين	لادوار البستاني
١٠	عازفة الكمان	لصموئيل عبد الشهيد
١١	وكان مازن ينادي	لتوما الخوري
١٢	كانت هناك امرأة	لرشاد دارغوث
١٣	يوم غضبت صور	لنضال ابي حبيب
١٤	بابا مبروك	لرشاد دارغوث
١٥	الانامل السحرية	لجوزفين مسعود
١٦	المغني الكبير	لروز غريب
١٧	جلجامش	لتوما الخوري
١٨	نور النهار	لروز غريب
١٩	النسر الكريم	لانطوان مسعود
٢٠	رنين الخناجر	لجوزفين مسعود
٢١	النجمتان	لروز غريب
٢٢	ابن العروس	لجوزفين مسعود
٢٣	جزيرة الوهم	لاملي نصر الله
٢٤	الغرفة السرية	لصموئيل عبد الشهيد
٢٥	النار الخفية	لروز غريب
٢٦	الحاج بحبح	لرشاد دارغوث
٢٧	جوهرة الجواهر	لجوزفين مسعود
٢٨	دهليز الغرائب	لفكتور حكيم
٢٩	التجاريب	لولي الدين يكن
٣٠	الصحائف السود	لولي الدين يكن
٣١	سلسلة من حكايات بيدبا	(٦ كتب للاطفال)

الثمن ٢٥٠ ق.ل.

صموئيل عبد الشهيد

عازفة الكلمات

قصص من الوجدان

بيت الحكمة
بيروت

الإهداء

إلى شقيقي ، وشقيقاتي ، عربون محبّة وإخلاص وتقدير .

صموئيل عبد الشهيد

الغلاف بريشة « رضوان الشهال »

الطبعة الثالثة ، بيروت – لبنان ، آب (اغسطس) ١٩٧٤

عازف الكمان

... وفجأةً انساب اللحنُ حزيناً حائراً ترتعش فيه أصداء بعيدة ...

وتجاوب في جوف الليل عبر الفضاء ينزّ بالألم ، ثم عقبه سكونٌ عميق كسكون القبور ؛ وتحرّكتُ أنا عن مقعدي ، ودَنوت من النافذه أُطلّ على الشارع المعتم ، والنغمُ الكئيب ما زال ينوح في مسامعي حتى غمر قلبي انقباضٌ مثقَل بالأسى ، واستبدّ بي الضيق ! تطلّعت من النافذة بعين قلقة أبحث عن عازف الكمان ، فلم أعثر إلاّ على ظلمة متكاثفة ، وسكينة مهيمنة ...

وبقيت واقفاً في مكاني أنصت بهدوء علّني أسمع اللحن مرّة ثانية . ولكنّ وقوفي طال حتى تعبت من غير

أن يقطع الليلَ أيّ صوت ! وفي وقفتي تلك ابتدأت خواطر مبهَمة تتناثر في مخيّلتي وتبرز بوضوح ، وصرت أنطلق معها بين الأيّام وأنا مسلوب الإرادة : ذكريات الطفولة البريئة ، ووالدي ، وإخوتي ، وحجرة الدراسة ، وليالي الصيف الحالمة ، وموجات شاطىء البحر التي تتكسّر على الصخور ... ومرّ أمامي موكب كبير من الأصدقاء الذين عرفتهم في فترات متقطّعة من حياتي .

ذكريات حافلة اختلجت أمام عينيّ ، ثم تلاشى كلّ شيء دفعة واحدة لأرى نفسي في حجرتي مكبّاً على لوحة أضرب قماشها بريشتي وألوانها . والتفتُّ خلفي أتأمّل اللوحة التي لم أنتهِ منها بعد : خطوط متعرّجة تهبط بين صخور وادٍ سحيق ، وأخرى متعرّجة نحو الشرق ، ثم جبال مرتفعة ، وسهول فسيحة ؛ لوحة لم تتمَّ بعد ! ورفعت أبصاري عنها وأنا أشعر بتفاهة كلّ ما أصنعه ، لأنّ شيئاً جديداً أتفاعل معه ، وأجسّده على قطعة القماش ، لم أبتدعه بعد . وهذا المرسم الصغير الذي يحتويني هو وحده عالمي الذي أجوس خلاله من على سطح بناية مؤلَّفة من

خمسة طوابق في هذا الحيّ الهادىء من ضاحية المدينة الشرقيّة . ولولا شغف صاحبة البناية بالفنّ لما رضيتْ بالأجر الزهيد الذي أدفعه لها . لقد تحبّبتُ إليها حين رسمت لها لوحة كبيرة تمثّلها وهي تحنو على الأزاهير في حديقتها ، فرضيت عنّي وباتت لا تبالي حين أتأخّر عليها بدفع الإيجار بضعة أشهر !

وماجت على ثغري بسمةٌ وانية وأنا أعرض هذه الومضات الخاطفة من حياتي : حياة فنّان بائس يعيش لفنّه فيحترق ، ويصبّ أعصابه ودمه وخياله ليحرّك كلّ ما يرسمه ، ثم يتململ ليرتفع من أعماق حضيض الفقر ، ولكنّ الفقر يشدّه إليه من جديد !

وغرقتُ ثانيةً بين أخيلة لوحتي وأنا تائه الفكر ، تشرد خواطري إلى البعيد ، ثم ترتدّ إليّ وهي أشدّ حيرة ، وأكثر ظلمة ، فلا أجد مناصاً من أن أظلّ أنثر ضرباتي ببطء ، وأترك لمشاعري أن تنفعل في صدري . وحين ألقيت الريشة من يدي كانت الساعة قد جاوزت

الثانية عَشْرةَ ليلاً .

وفي الليالي التالية كنت أُصيخ السمعَ ، فيتموّج في الظلمات اللحنُ الحائر ، حتى صرت في ساعة معيّنة من كلّ مساء أرمي ما بيدي بعد أن أطفىء النور بلهفة ، وأنتظر سماع صوت وتر الكمان . وتبيّنتُ أنّ النغمات تصدر عن البناية التي أمامنا، من حجرة في الطابق الرابع. وكان اللحن دائماً حزيناً حائراً ، ترتعش فيه أصداء بعيدة .

وتلك الأصداء كانت توحي لي بعشرات اللوحات ، فأحسّ بقلبي يخفق بعنف ، ومشاهد عديدة تضطرب أمام باصرتي حيّةً ؛ ففي اللحن وحدَه ألف قصّة وقصّة، لأنَّ فيه شيئاً أكثر من اللحن ، وأكثر من الوتر : فيه تعبير يستولي على الوجدان ، ويخلّف النفس لا تستقرّ على شيء . وحاولت أن أنفذ بناظري إلى ما وراء جدران الغرفة لأقف على الحقيقة ، ولكنَّ الستائر كانت تحجبها عنّي .

وأخذ القلق يساور ضربات ريشتي كما كان يساور

النغمَ ، وأصبحت ألوان اللوحات تنمّ عن أسى دفين وأحاسيس حزينة ، وصارت حركاتها عنيفة متمرّدة .

وقبل أن أنام كنت أهيم في أودية المجهول أفكّر بتلك الحجرة ، وأتصوّر قصصاً خياليّة أستوحيها من الغموض الذي يكتنفها : فقد يكون العازف رجلاً في خريف العمر يعتكف في أواخر حياته بين ذكرياته التي يعيدها إليه كأنُه ، وقد يكون امرأة حزينة القلب تبثّ الليل أشجانها من خلال الألحان ، أو فتاة تناجي الحبيب الغائب وتذكّره أحلام الماضي الجميل ... وربّما يكون فنّاناً تاعساً مثلي لا يجد إلاّ الليل مرتعاً خصباً يسرح فيه عذابه . ثم يرهقني التفكير ، فأغمض جفنيّ وأنا أضمّ إليّ أطيافاً ورؤى . والشيء الوحيد الذي كنت أحسّه في خاتمة كلّ ليلة هو الألم .

وفي إحدى الأمسيّات ، فيما كنت كعادتي أقف بجوار النافذة، وأحلّق في فَيافي التّيه تجرّني إليها الأوتارُ النائحة، أفقت على خطوات صاحبة البناية في حجرتي ؛ لقد وقفتْ على عتبة الباب ، ولكنّني لم أعبأ بها ، بل بقيت أصغي

بصمتٍ والدموع تكاد تتفلّت من مآقيّ . وتقدَّمتْ صاحبة البيت منّي بخطى ثابتة خفيفة ، ثم اتّكأت على الجدار بقربي ، وأنصتت ؛ وحين مات اللحنُ راعني أن أرى العبَرات تتألّق بين جفنيها ، وغصّة تكاد تختنق في حلقها .

وقبل أن أسألها قالت بصوت متهدّج :

ـ إنّها نصف مشلولة .

فهتفت بذهول :

ـ مشلولة ؟ نصف مشلولة ؟ من هي ؟

ـ فتاة في ربيع عمرها ، تقطن مع عمّتها في هذه الشقّة ، وحياتها سلسلة متّصلة من الأحزان . أمّا الكمان فهو عزاؤها الوحيد في بحران همومها !

وتنهّدتْ بحسرة. وأشحتُ بوجهي بعيداً وقد ارتجف كلُّ عضو منّي ، وكلمة « مشلولة » تحتار على شفتيّ وكأنّها نار لاذعة ! أيّة صورة يمكن أن يوحيها إليَّ هذا المنظر ؟ الحبّ والعذاب ! القلب الذي حرمته الأقدار أمانيّه !

فتاة الصومعة ! وهـل يمكن لريشتي أن تعبّر عن مشاعرها وأفكارها التي تؤرّقها وتتركها فريسة شقيّة بين أنيابها ؟ فبماذا تفكّر والدنيا تدور حولها وتنبض بالجمال والحبّ والنجوى ؟ ألا تتمنّى لو تموت !.. أوّاه ! فتاة مشلولة تعزف على كمان ! يا لها من لوحة غنيّة بكلّ شيء : بالحياة ، والألوان ، والأحاسيس ، والتعابير ؛ وفي إمكاني أن أجعلها قطعة نابضة بكلّ ما يثور بين ضلوعها .

وتعلّقت عيناي بالخطوط الأوّليّة التي انطبعت في مخيّلتي ، وكأنّني ابتدأت حقّاً في رسمها . وبعد فترةِ صمت قصيرة أقبلتُ على صاحبة البناية وقلت بنبرة خافتة :

ـ أريد أن أراها .

فبُهتت المرأة، ثم أطرقت نحو الأرض وكأنّها تفكّر. وأخيراً هزّت رأسها ومشت أمامي ، واجتزنا الطريق إلى البناية الأخرى . وكلّما صعدنا درجة كانت الدماء تتزاحم في عروقي وتعربد ، والمناظر التي أمامي تكبر وتتجسّم . أيمكن أن أكون قد عثرت على اللوحة الخالدة ؟ وشعرت

برجفة خفيّة تسري في بدني ،أمّا ذهني فقد كان مرهقاً ،
والنداءات التي تتناوح فيه أكبر ممّا يسعها . وسمعت
المرأة تقول لي بخشوع :

– سِرْ بسكوت !

ثم تبعتها في دهليز مظلم إلاّ من نور ضئيل يرفّ في
نهايته ، وكنت أمشي بين ظلالنا الراقصة كالشبح الذي
يجوب سراديبَ غريبةً في بقعة نائية. ثم لمحتها في تلك العتمة
تدفع باباً موارباً وتومىء إليَّ بيدها . ولا أدري آنئذٍ ما
أصابني ؛ فقد شعرت بأعصابي تنوء ، وعروقي تنتفخ ،
وبدا لي أنّ دوّامة مخيفة راحت تجتذبني إليها بوحشيّة.
ومن خلف الباب الذي لم أَلِجْه بعدُ ارتفع نغمُ الكمان !
وقفز قلبي بين ضلوعي، فالصورة التي كنت أتخيّلها لا بدَّ
أن أراها الآن كما هي لفتاة مشلولة . وهل يمكنني أن أنتزع
صورة أروع منها؟ومع هذا فقد شعرت بأنّني أقتحم على
العازفة وحدتَها ونجواها ، فأردت أن أعود من حيث
أتيت ، ولكنّ النغمات الكئيبة كانت تذوب في نفسي
وتتدفّق في شراييني حتى تكاد تنفجر .

وعبرت العتبة وراء المرأة وأنا راعش القلب .

وانتشرت الألحان بين أرجاء الغرفة ، ثم تسرَّبت إلى
الدهليز تحمل معها نغمات قلب معذَّب . ولكنّي كنت
كلّي لهفة لرؤية العازفة التي ستكون إلهة لوحتي .

ثم وقعت أبصاري عليها !

فتاة في عمر الزهور ، يلفّ جسدَها النحيل الحيّ
ثوبٌ أبيض ، تجلس على مقعد ذي عجلات بجوار النافذة
المسدَلة الستائر ، والكمان بين يديها تعزف عليه وكأنّها
غائبة عن الدنيا التي تمور بالحياة . وهبّت نسمات باردة من
النافذة الشماليّة داعبت شعرَها المتناثر على كتفيها وكأنّه
أسلاك ذهبيّة دقيقة،وحدَّقتُ إلى وجهها أريد أن أتبيَّن
مَعالمه وأحفرَ تقاطيعه في خيالي ، فرأيت عينين تائهتين
تطوف بهما ذكرياتٌ عابرة ، وتنمّان عن آلام هائلة .
وانعكست في نظرتها آهةٌ موجعة هي بقيّة لهاث من
الماضي . أمّا محيّاها فكان كلّه شعراً وخيالاً ، يلوح
عليه ويشوبه بعضُ الشحوب. فهي، في غفوتها بين أحضان
الذكريات التي ينوح بها الليلُ على ذلك المقعد ذي العجلات،

والسكينةُ تخيِّم حولها، وأناملها الرقيقة الناعمة تلمس الأوتار، ورأسها الصغير المنحني على الكمان، أروعُ لوحة يهفو إليها رسّام !

وجمدتُ في مكاني مذهولاً أرنو إليها وكلّي عيون متأمِّلة، وقلبٌ واجف يدقّ .

وشيئاً فشيئاً ابتدأتُ أصحو على نفسي لأرى بسمةً باهتة ترفّ على محيّا «ابتهاج»، وشفتين قرمزيّتين تتحرّكان فيندّ عنهما صوتٌ عذب يرحّب بنا. وجلست على مقعد مقابلها، وعيناي مصوّبتان إليها يجول فيهما ألفُ سؤال صامت. ورمقتني «ابتهاج» ببراءة وكأنّها تودّ أن تطبع صورتي في ذهنها .

كان كلّ شيء يحدث حولي وأنا لا أكاد أعيه، كمن لُوِّح به في الفضاء حتى ناله الدوار. فقد طغى عليّ المشهدُ واستأثر بي، بل لقد طغت عليّ «ابتهاج» نفسُها ! وراحت صاحبة البناية تحدّثها عنّي حتى أحسست بالدماء تتصاعد إلى وجنتيّ. وهتفت «ابتهاج» برنّة مرحة :

ـ أأنت فنّان !؟ إنّني أهنّئك !

نظرت إليها بحنان، فرأيت وجنتيها تضطرمان، ويديها تضطربان، فغضضت من بصري وأنا أحسّ بالارتباك. وحاولت أن أتكلّم، ولكنّ الكلمات اختفت عن شفتيّ. فأطبقت فمي؛ وخُيِّل إليّ، وأنا لا أزال مطرقاً، أنّ أبصارها نفذت إلى صدري، وقرأتْ ما يختلج فيه. وهمستُ لنفسي : «إنّ السرّ في عينيها» .

ومنذ تلك الليلة أصبحت «ابتهاج» كلَّ شيء في حياتي ! فهي في فكري، وقلبي، ودمي، فرُحتُ أقضي الساعات الطويلة بقربها أنصت إلى حديثها. وكنت في كثير من الأحيان أجدها منشرحةَ الصدر، تملأ سهرتَنا بهجةً وغبطة، وتضفي على قلبينا السرور والمرح؛ وفي بعض الأوقات كنت أراها كئيبة النفس، تصوّب نظراتها الجامدة إلى الفراغ الكبير، لا تنبس بكلمة، فادعها لنفسها تقاوم أشجانها، والدقائق تمرّ بطيئة وهي مستغرقة في تأمّلاتها السوداويّة، فاضطرّ حينذاك أن أنتشلها من أفكارها وأعود بها إلى الحياة. وفي الليل كنت دائماً أصغي إلى زفرات الكمان، فيهزّني النغم كما كان يهزّني صوتها .

إنّها تعزف للوجود ، وتعزف لنفسها أيضاً ، فينطق
الكمان بالألم ، ويناجي قلبها ، وأتحسّس أنا كلّ شيء ،
وأطوي صرخة مجنونة في صدري . فانا أحبّها ! أحبّها
حتى العبادة ! وتُشقيني أوجاعُها ، ويتفاقم عذابي حين
أدرك أنّني لا أستطيع أن أخفّف عنها بغير كلمات
مبتورة قد تنكأ جراحها . ثم أعود إلى مرسمي بخطى
متثاقلة ، وقد خلّفت قلبي بين يديها .

لم تبقَ « ابتهاج » لوحةً فنيّة بالنسبة لي : فالصورة
قد تبدّلت وصارت قطعة من نفسي ، إن لم تكن كلّها .
ولكن ، يا للأسف ! فانا لا أستطيع أن أبوح إليها مجرّد
البوح بعواطفي، لا أستطيع أن أقول لها : « إنّي أحبّك
يا ابتهاج » ... وهي مثلي تطوي بين ضلوعها حبّاً يطفو
في عينيها كلّما رأتني ، لكنّها تغلق صدرها على سرّها ،
وتمنع شفتيها من الحديث ...

وفي ذات ليلة ابتدأت أرسم «ابتهاج» وهي تعزف ..
وتركتني ألتقط لها ومضاتٍ خاطفة لكلّ حركة
تبديها ، فتنقّلت الريشة من مكان إلى آخر ، وغمستها

بالألوان الوَقور . ثم رحت أتمّم هيكلها وألقي عليه ظلالاً
فنيّة وأضواء تنعكس على وجهها . ويوماً بعد آخر كنت
أقترب من النهاية .

وتألّفت اللوحة ،فإذا هي ذوب حبّي وعذابي ! إنّني
أريدها لوحة ناطقة تعبّر بدقّة عن « ابتهاج » الفتاة ،
و« ابتهاج » العَازفة ، وقد خلقتُها كما شئت .

وقبل أن ألقي الريشة من يدي ببعض الوقت أمسكتْ
« ابتهاج » الكمان ، وراحت تعزف . ولا أدري ما دعاني
حينذاك أن أتوقّف قليلاً وأتطلّع إليها ؛ فقد تراءى لي
أنّ للنغمات تلك الليلةَ صدى غريباً لا عهد لي به من قبل،
وأنّ لوقعها في أذني شيئاً أكثر من النغم : ففيه همسة
وَداع ، أو فراق لم أتبيّنه. ولمحت وجهها يغيم وتمشي عليه
سحائبُ تكفّنه بالأسى ، ورأيت صدرها يلهث بسرعة
وكأنّ ضربات حادّة تمزّقه وتقطّع قلبها . وجاهدت
« ابتهاج » حتى تتمّ لحنها ، وتنبّهتُ على نفسي ، فمضيت
أرسم التعابير التي ارتسمت عليها .

وترجرج النغم ... واختلجت به رنّةُ نوحٍ عميقة

وكأنّها أنّات قلب جريح .

وظلّ النغم ينتشر كموجات دائريّة على صفحة البحر . ثم انتهيتُ من اللوحة ، ورميت الريشة .

وكان النغم قد تلاشى .

فرفعت رأسي إلى « ابتهاج » ، وإذا بي أراها تتفرّس باللوحة بعينين متالّقتين بالغبطـــة والإثارة . وهمستْ بصوت فرح وكأنّها لا تصدّق ما تراه :

ـ أهذا أنا ؟ !

ـ نعم .

ـ أهكذا تراني أنبض بالحياة على الرغم من شللي ؟

ـ بل أكثر من ذلك ، لأنّني حاولت أن أقتنص تواثُبَ الروح التي فيك .

ـ إذن ، أنت لا تراني مشلولة ؟

ـ أبداً . ألا ترين كم أحبّك ؟

فتضرّجت وجنتاها بحمرة الحياء ، وغمغمت :

ـ تحبّني ؟ تحبّني ! آه ! .. كم أنا سعيدة ! ..

ـ بل أنا السعيد ، لأنّني واثق أنّنا نستطيع بفضل

حبّنا أن ننتصر حتى على الشلل .

فابتسمت « ابتهاج » وقالت بحماسة :

ـ نعم ، سننتصر ، ما دامت فينا بقيّة أمل ! إنّي أكاد أحسّ دبيب الحياة يسري في أعضائي المشلولة !

فقلت لها :

ـ ستكون إرادة الحياة التي فينا خير منقذٍ لنا من براثن القنوط ، لأنّ أبواب الحياة مشرَعة في وجه مَن يطلبها .

فشردت أبصارها إلى البعيد ، في حلم جميل مشرق يخفق بالأمل المتوثّب !

قلبُ الأم

كانت الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر .

ورحت أنتظر السيّارة التي ستقلّني من مكتب السفريات في العاصمة إلى « صيدا » ، ومن ثم إلى القرية الجبليّة النائية .. كانت الدقائق تمرّ متثاقلة ، وأنا قابع في مقعدي ، في لحظات الانتظار هذه ، أختلس النظرات إلى الطريق من وراء الواجهة الزجاجيّة أمامي . وفي إحدى هذه المرّات استرعت انتباهي امرأةٌ تقف بين السيّارات بجوار الرصيف .

لم يكن في مظهر المرأة ما يثير الاهتمام ، سوى أنّها تحمل بين ذراعيها طفلاً صغيراً يتطلّع حوله بعينين بريئتين لا تنمّان عن شيء ، تماماً كما يتطلّع فرخ طائر

من عشّه إلى الأفق البعيد . ولكنْ ، حين رفعت رأسها والتفتت حولها ، خيّل إليّ أنّني أقرأ في عينيها قصّة طويلة من حياة امرأة، تتجمّع فيها للَمحة عابرة ، ثم تتلاشى لتحلّ محلّها سكينةٌ غامضة . وما راعني سوى أن يتلقّف ذهني هذه اللوحةَ فتستأثر هذه المرأة بأفكاري؛ ربّما تكون تلك النظرة المليئة بالانفعال قد ألقت على نفسي ظلاًّ من الرؤيا ، أو قد تكون ملامح وجهها الصمّاء قد ألحّت على خيالي، فاذعنت إلى تلك الأبعاد التي تفتّحت في أعماق كياني ... كان في المرأة شيء غريب حاولتُ أن أنفذ إليه ، فنهضت عن مقعدي، وخرجت من المكتب إلى الطريق . وكلّما كنت أدنو منها بدا لي أنّني ألمح آثار قسوة الحياة التي لم أرَها من قبل : فثيابُها قديمة ، ولكن تنمّ عن ذوق سليم ، وبسمتها دافئة تشوبها مسحةٌ من الأسى والوجوم ، ويداها خشنتان مرهقتان من طول العمل ... لم تكن جميلة ، إنّما كان في محيّاها جاذبيّة لم أدرك كنهَها .

وقبل أن أقترب منها رأيتها تغادر مكانها وتمضي نحو

سيّارة أخرى كانت تنتظرها ، وتختفي عن أبصاري ؛ فوقفت على حافة الرصيف أتأمّلها وهي تبتعد . ثم زممت شفتيّ ببعض اللامبالاة وأردت أن أعود ، إلاّ أنّني سمعت صوتاً يقول :

- إنّ الحياة قاسية على بعض الناس .

والتفتُّ خلفي مبهوتاً ، وكأنّ الصوت الذي رنّ في أذنيّ كان صدى عميقاً لما يتجاوب في نفسي ، فرأيت رجلاً يناهز الخمسين من عمره متّكئاً على جناح سيّارته ، وعيناه تهيمان في الفضاء . وخُيّل لي أنّ السائق الكهل يعرف قصّة هذه المرأة ، فأجبته :

- ألحياة قاسية على كلّ الناس .

فقال :

- ليس تماماً ، فالناس يتفاوتون في التفكير ووسائل العيش . إنّنا في معركة رهيبة يحارب فيها كلٌّ على طريقته الخاصّة .

- كيف كانت هذه المرأة تحارب في ميدان الحياة ؟

- كانت تحارب بكلّ ما في كيان المرأة من قوّة

وسلاح .

– وهل انتصرت ؟

– لا أدري تماماً . يبدو أحياناً أنّها فقدت كلّ شيء تتعلّق به في هذه الحياة ، وأحياناً أخرى يبدو أنّها ربحت ما كانت تكافح من أجله ، على أنقاض شبابها وربيعها .

وطفقت أنظر إليه بحيرة وقلق .

كان وجهه شارداً تتراقص عليه أخيلة تتراءى من أعماق المجهول الذي يدنو منه ، كأنّ المشاهد الحيّة راحت تحبو أمام عينيه . وحين احتارت الكلمات على شفتيه غرقت عيناه في ظلمة مبهمة ، وتمتم وكأنّه يحدّث نفسه :

– ترى ، هل كانت تدري ما يخبّئه لها القدر ؟ كنت أعرفها كما أعرف ابنتي ؛ وكثيراً ما كنت أنقلها بسيّارتي إلى حيث تريد . لَشدّ ما قست عليها الحياة ، فحفرت بإزميلها الرهيب أخاديد عميقة فوق محيّاها .

وتوقّف الرجل عن الحديث ، واعتصم بالصمت . ثم أردف كأنّه يجيب عن سؤال لم يُطرَح :

– إنّها فتاة طاهرة كزنبقة الحقل . ولكن هي خطوب الدهر وعوادي الزمان هدّتها . إسمع يا سيّدي قصّة هذه الفتاة الضحيّة ... لقد كانت وحيدة أبيها بعد وفاة أمّها ، فرفلت في بحبوحة من العيش ، ونعمت بحنان والدها ودفء عطفه ، ولم يبخل عليها بشيء من مباهج الدنيا . وقبل أن يلفظ لهاث الحياة وهبها كلّ ثروته ، وهي ثروة طائلة . ووجدت الفتاة نفسها وحيدة ، فأحدقت بها العيون طمعاً بثروتها ، واستطاع شيطان رجيم أن يحتال عليها بمعسول الكلام ويوقعها في شراك حبّه .

«كان هو شابّاً وسيماً تتألّق على شفتيه بسمة فاتنة أغرتها ، فخيّل إليها أنّه مَلاذُها الوحيد في حياة رزأتها بوالديها وخلّفتها في وحدة قاتلة كالموت . فأحبّته كما يحبّ العابد معبوده ، وأخذت تعيش في حلم وهميّ كفّن الحقيقةَ المرعبة بسراب بارقٍ ، فلم تمانع حين عرض عليها الزواج ؛ أوليس هذا الزواج هو ما كانت تتوق إليه ؟

« ولكن لم ينقضِ زمن وجيز على زواجها حتى انقلب ذلك الملاكُ الرحيم الذي استهواها إلى ذئب جائع يعوي

بين أرجاء البيت الكبير البـــارد . ورأته على حقيقته وحشاً كاسراً يكاد يلتهمها ويمزّقها إرباً إرباً ... كان يريد مالها !..

« ورفضت هي أن تتنازل عن قرشٍ واحدٍ بعد ما أدركت بُغيته ، وانتصبت في وجهه كالشجرة القديمة التي تتحدّى العاصفة ، وصرخت :

ـ لن تاخذ منّي شيئاً ... لن تاخذ .

« وابتسم الشيطان بهدوء وطمانينة ، وقال في نفسه : « لا باس ، ساعرف كيف أرغمها على الخضوع لإرادتي » .

« كان يعلم أنّها حامل ، ولا بدّ أنّها على استعداد لأن تضحّي بكلّ شيء في سبيل وليدها .

« وفي ليلة كافرة من ليالي كانون الأوّل وضعت طفلها ، فاحتفظ الزوج بالطفل وأخفاه عنها !

« كانت تعيش معه في البيت من غير أن تستطيع رؤية ابنها بعدما حرمها منه . وشرع يعذّبها بصمت ودهاء حتى أرهق أعصابها ، فاحسّت بها تحترق في جسدها

الواهي وتحطّم حياتها . وكلّما لمحها تبكي كان يصعقها بنظرة ساخرة تلذعها كالسّياط .

« أصبحت حياتهـا جحيماً لا يطاق ، ويوماً بعد يوم سرى الشحوب إلى وجهها حتى أصبح كالليمونة الصفراء . كانت تدور في أرجاء البيت المعتم كالمجنونـــة ، تدقّ الجدران السوداء التي وشّحتها النوافذ المغلقة بنقاب قاتم يبعث على الانقباض . وشعرت بالثورة تحطّم ضلوعها في صدرها ، وتفرّ إلى مـــا وراء البيت ، بل العاصمة . وتركها هو تتعذّب لحظة بعد أخرى ، حتى وهنت قواها . وانهارت مقاومتها التي كانت تعتصم بها . وحين أدرك أنّها أصبحت تحت رحمتـــه دلف إلى حجرتها ، وجلس بجوارها على حافة السرير ، فاحسّت كأنّ كابوساً رهيباً يجثم على صدرها ويطبق عليها . وتمثّل لها صوتُه وكأنّه صوت عزيف الجنّ ترقص رقصة الموت على جماجـــم ضحاياها . قال لها :

ـ لقد تعذّبتِ كثيراً ، وإنّني أرثي لك . هل تريدين طفلك ؟

« فصاحت من أعماق قلبها :

- طفلي ، أريد طفلي ، أعطني طفلي !

« وحاولت أن تنهض من سريرها وتتوسّل إليه ، ولكنّ جسدها المنهوك تهالك على نفسه ، فتكوّمت فوق غطائها لاهثة الأنفاس .

« وأجابها بنبرة باردة :

- حسناً ، سأردّ لك طفلك ، ولكن أربط وعدي بشرط .

- قل ما تريد ، إنّني مستعدّة أن أعطيك ما تطلبه، ولكن ردّ لي طفلي .

« فابتسم الرجل ، فبدت نواجذه كأنّها أنياب وحش . وقال :

- تنازلي عن كلّ ما تملكين !

« وفي غمرة الانفعال الذي انتابها تنازلت له عن كلّ شيء يا سيّدي . هذا ما خسرَته ».

وهزّ السائق العجوز رأسه بحزن . فسألتُه :

- وماذا ربحت ؟

- ربحت طفلها الذي أصبح ملكها لا يشاركها فيه

إنسان ، وربحت شيئاً من الهناء بعد ما انفصلت عن الذي سامها كلّ ألوان العذاب . إنّها الآن سعيدة بطفلها الذي رأيتَها تحمله ، هذا الطفل الذي وهبت له نفسها ، وأعصابها ، وحياتها . إنّها ملاك ... ملاك من السماء !

وأردت أن أردّد معه أنّها ملاك من السماء ، ولكن قبل أن أنطق بكلمة وصلت السيّارة التي كنت أنتظرها، فحيّيت السائق ، وأسرعتُ إليها وانطلقت .

مِن أجلِ الصّغار

طُرد من عمله في هذا الصباح وعاد يجوب طرقات المدينة بوجه أغبَرَ شاحبٍ ، ونظراتٍ قلقة تنمّ عن أحزان دفينة . وغربت شمس النهار وراء الأفق البعيد، ولكنّه كان لا يزال ينتزع أقدامه من الأرض بإعياء ، وينوء تحت أعباء الحياة وصرخات الجوع التي تمزّق أحشاءه .

وابتدأت غيوم ضبابيّة تغشى ذهنه المكدود وتخيّم عليه ، وابتدأ رأسه يدور ويلفّ ، فراحت ومضات متقطّعة من حياته تلوح لباصرتيه ، ولكنْ تعود فتفلت من خياله وتمضي إلى المجهول مخلّفةً وراءها نفساً معذّبة، وقلباً كئيباً .

واختلطت عليه وجوهٌ عديدة تَمازج بعضها ببعض

وكأنّها حلقة لا تستقرّ. ثم انفرج الضباب عن محيّا رئيسه، فأحسّ برعدة تدبّ في جسده!.. رعدة عنيفة جعلت أصابعه المعروكة التي وهنت تتشنّج بعصبيّة على أطراف سترته البالية، فعضّ على شفتيـه بقسوة لئلاّ تقفز من بينهما صرخة مجنونة. لاح له محيّاه الساحر الذي ارتسمت عليه خطوطُ متغضّنة قاسية، وتراقصت عليه ومضات الكراهيـة والهزء، ورأى على شفتيه الحكمَ بمصيره. وتناهى إليه صوته آتياً من خلف الزمن:

- أنت مطرود... اغربْ عن وجهي!

وحين بلغ «كمال» بتصوّراته هذا الحدّ، انتـابه الضعفُ، فتهالك على ساق شجرة على حافة الرصيف يلتقط أنفاسه اللاهثة... ومرّ به جماعةُ من الأولاد أخذوا ينظرون إليه بدهشة، ثم ضحكوا بلا اكتراث ومضوا. وعلقت بهم أبصاره التائهة، تموج بها أطيافٌ من الأسى والحنوّ... وتحرّك من مكانه...

إضطربت خطواته نحو كوخه المتداعي في أقصى المدينة. وارتعشت في صدره خواطرُه المروّعـة التي

استبدّت به حتى كادت أن تطوّح بحياته إلى هوّة سحيقة لا يدري قرارَها، فطفرت من عينيه الدموعُ فمسحها براحة يده النحيلة. فأشدُّ ما يخشاه هو أن يعود إلى بيته ليرى تلك الوجوه الصغيرة الشاحبة، والعيون الضاوية الزائغة التي تتطلّع إليه بلهفة وترقّب. إنّه يمشي، ويمشي، وتلك المشاهد العنيفة تطوف بخياله وتعتصر منه مشاعرَه وآلامه، فيحسّ كأنّ هناك قبضة ضخمة سوداء تخنقه وتدوس فوق جسده حتى تفتّته أشلاء. ربّاه! كيف يعود إلى البيت؟ أيمكنـه أن يحتمل أنّات أطفاله وعويلهم! أيقوى أن يتأمّل محيّا زوجته الصامتـة التي احتملت بصبر نافذٍ لياليَ قاتمةً مظلمة، وعذابَ العري والفقر، من غير أن تنبس بكلمـة، أو تضجّ شفتاها بالشكوى؟ كيف يمكنه أن يغمض جفنيه ويحلو له النوم، والبيت كلّه يفتقر إلى لقمة الخبز؟ أبداً! أبداً! لا يمكنه أن يعود إلى البيت ليتعذّب. وهمّ أن يعود من حيث جاء، والتفت إلى الوراء، ولكنّ قدميه جمدتا في مكانهما كأنّهما شُدّتا إلى الأرض، ولم يستطع أن يتقدّم خطوة واحدة، أو يرجع خطوة!

وراه رجل يحمل بيده حقيبة كبيرة ، فدنا منه وقال :

ـ هل لك أن تحمل لي هذه الحقيبة ؟

فحدّق إليه « كمال » بنظرة مجنونة ، واحتدم غيظه حتى خيّل إليه أنّ ثورة متمرّدة تجمّعت في قبضته ، فتحفّزت أعصابه حتى كاد يثب به ويدقّ عنقه في الأرض ؛ لكنّه عاد فغضّ من بصره طاوياً حنقه بين ضلوعه : فهو بحاجة إلى القروش القليلة التي سيتقاضاها أجراً على حمله الحقيبة. وهزّ رأسه بيأس، وتناول الحقيبة ، وتبع الرجل !

وجثم الليل الكئيب على المدينة ، وهو يجرّ خطاه الثقيلة حتى بلغ كوخه . فتردّد أمامه برهة وجيزة ، ثم دفع الباب ووقف على العتبة ينقّل أبصاره فيما حوله ، فرأى زوجته على ضوء السراج الحائل ترضع طفلها الوليد من ثديها الجافّ ، وتداعب خصلات شعره القصيرة ... ولمح فتاته الجائعة منزوية في ركن الكوخ ترمقه بأسى . وهمس ابنُه الصغير :

ـ بابا ، أنا جائع !

وهمّت من مآقي الوالد العبراتُ ، ثم تكوّم على نفسه فوق قطعة الحصير بجوار زوجته ، وألقى بشريحة من الجبن ملفوفة بورقة، وهو يتنهّد بحسرة . وزحف أطفاله حوله يقضمون اللقمات اليابسة وهم صامتون ، وبين فترة وأخرى كان الطفل يبكي . وتدلّى رأس الفتاة على ركبة والدتها ونامت. وقرأت المرأة على وجه زوجها أمارات الأسى العميق ، ورأت في مقلتيه دموعاً تئنّ في صمت وتوجّع ، ولكنّها لم تتفوّه ببنت شفة ، وبقيت تمضغ اللقمات وترضع الطفل .

وغادر « كمال » الكوخ إلى باحته المظلمة وكأنّه يريد أن يختفي في ظلماتها من الحقيقة التي تنتصب أمامه ، واتّكأ على جدار وهو يحدّق إلى الأفق البعيد بعينين فارغتين تنمّان عن المجهول . وتزاحمت انفعالاته في عروقه ، ثم انتشرت في جسده حتى طغت على عقله ، فصرخ :

ـ أريد أن أموت ! إرحمني يا إلهي !

ورفّ في أذنيه صوتٌ رقيق فيه رنّة حبّ :

ـ ولمن تتركنا لوحدنا يا « كمال » ؟ لمن ؟

وأدار رأسه مرتبكاً ، فشاهد زوجته تقف أمامه بهدوء وتموج على محيّاها أبلغُ آيات العطف والحنوّ . واضطرب « كمال » تحت وقع نظراتها الثابتة الرقيقة ، فاطرق نحو الأرض وقال :

ـ إنّني خائف !

ـ لماذا تخاف ؟

ـ أخاف الحياة ، والفقر .

فربّتت كتفه برفق وقالت :

ـ ماذا جرى ؟ هل تركت عملك ؟

فهزّ رأسه إيجاباً ، وتسرّبت إلى نفسها موجةٌ من الرهبة ، لكنّها تمالكت روعها وقالت بصوت متأثّر :

ـ لكنْ لماذا ؟ لماذا ؟

وصمت « كمال » لا يحير جواباً ، وبدا له أنّ هناك فجوة ناتئة الصخور فغرت فاهها لتبتلعه . ثم أجاب بحزن :

ـ لأنّني عرفتُ ، صدفةً ، من تصرّفاته الدنيئة ، بعضَ

ما لا يتّفق ومصلحة الشركة ، فغضب عليّ !

وأخفت المرأة وجهها براحتيها وكأنّها تحاول أن تصدّ عنها شبحاً مخيفاً . ورأى أصابعها تنقبض وتنبسط . وفجأة رفعت إليه رأسها وقالت :

ـ وماذا تريد أن تفعل ؟

فاحتارت على شفتيه أحاديثُ صامتة . إنّه لا يدري ! ..

ورأت اليأس كلّه يتجمّع في عينيه كالغيوم ، ويحفر أخاديد مجوّفة في جبينه ، فحاولت أن تبتسم ، غير أنّ ابتسامتها كانت تنبض بالمرارة . ثم غمغم :

ـ لقد فقدت كلّ شيء . ولم يبقَ في وسعي أن أكافح .

وتهدّج صوت المرأة وهي تقبض على كلتا يديه وتصيح به .

ـ أبداً ! لم تفقد كلّ شيء ! لم تفقد أيّ شيء ! لقد بقينا نحن . ومن أجلنا يجب أن تكافح . من أجل الصغار . هل سمعت ؟

وتطلّعت إليه بقوّة وتحدٍّ ، وفتح فمه ليقول شيئاً ، لكنّ نظراتها الثائرة أذهلته . ورأى فيها معنى جديداً :

رأى فيها قصّة صراع عنيفة في حياة امرأة تدافع عن مصير أطفالها، قصّة القلب الذي يكافح في سبيل الحياة. وومض في خلال الضباب الذي لفّ مخيّلته ضوءٌ باهر، وكأنّه نجم بعيد، ضوء من الأمل. وارتسمت على شفتيه ابتسامة. واتّسعت الابتسامة حتى غمرت وجهه كلّه، فطوّق خصر زوجته، ثم عادا معاً إلى الكوخ، ورأسُها إلى كتفه.

الابن البار[1]

في ليلة من ليالي الشتاء القارسة اجتمعنا حول الموقد المتأجّج بالنيران، في بيتنا القديم الرابض على سفح الجبل في أطراف الضيعة النائية، وشخصت أبصارنا كلّها إلى والدي وهو يقرأ لنا رسالة وردت من «اميركا»، من أخينا الأكبر الذي اغترب ليتابع دراسته العليا في إحدى الجامعات. كان والدي يقرأ الرسالة بصوت متهدّج، وعينين بارقتين، وشفتين راعشتين. وحانت منّي التفاتةٌ إلى أمّي، فرأيت العَبَرات تترقرق في عينيها، فتمسحها خفيةً بمنديلها الملوّن، وتتنهّد بأسى؛ وتذكّرتُ كلماتها التي حمّلَتْها أخي في المرفإ حين ذهبنا لوداعه:

ـ أكتب لنا دائماً يا «وجدي»، عرّفنا على أخبارك!

تذكّر أنّ لك أهلاً وأقارب !

فحاول أخي أن يبتسم من خلال دموعه التي غصّت بها مآقيه ، وأجاب :

ـ سأكتب إليك دائماً يا أمّاه ! ثقي بي !

كان هذا منذ خمس سنوات . ووفى أخي بوعده ، فلم يمضِ شهرٌ من غير أن نتلقّى منه رسالة أو أكثر . وفي كلّ مرّة كنت أقرأ في عينَي أمّي قصّة الأسى والشوق .

ولكنّ رسالة هذه الليلة كانت تختلف عن السابقة : فقد زفّ إلينا ، في هذه الرسالة ، بشرى تفوّقه في دراسته ، وتخرّجه ، وعزمه على العودة إلى الوطن على أوّل باخرة تتّجه إلى مرفإ بلده ، فامتلأت قلوبنا بالغبطة والبهجة ، واستثارتها الحماسة ، فازددنا التفافاً حول والدنا ، وكأنّنا نريد أن نلتهم الرسالة . وسمعت والدتي تقول بصوت اعترته رجفةُ الفرح :

ـ شكراً لك يا إلهي ، ألف شكر !

كانت جدّتي تجلس آنئذٍ في سريرها المنزوي في ركن الحجرة تتمتم بكلمات خافتة ، وكأنّها تصلّي ؛ وعندما

خُيّل إليّ أنّها ختمت صلاتها أسرعتُ أزفّ إليها البشرى ، فتطلّعت إليّ بعينين شبه مظلمتين ، وقالت :

ـ كنت أعلم أنّه سيعود . هكذا حدّثني قلبي ! إنّه كابيه !

فقلت بدهشة :

ـ كابيه يا جدّتي ؟ ماذا تعنين ؟

وقبل أن تنطق بكلمة ، هتف بها أبي :

ـ لا يا أمّاه ، لا داعي لترديد تلك القصّة القديمة .

فأجابته :

ـ لا يا بنيّ ، هذا هو الوقت المناسب . فدعني أُحدّث هؤلاء الصغار عن والدهم ليقتفوا خطاه ، ويكونوا خير أبناء لمثل هذا الأب .

وعلى الرغم من احتجاج والدي واعتراضه ، فإنّها أبت إلاّ أن تروي لنا إحدى ذكرياتها البعيدة التي تفخر بها . وأشارت إلينا ، فدنونا منها ، فاتّكأ بعضنا على حافة السرير ، وجلس بعضنا الآخر على الفراش الممدّد على الأرض ، وأرهفنا آذاننا لقصّة جدّتي . قالت :

ـ لا تعجبوا يا أحفادي من النجاح الذي حالف أخاكم في « اميركا » ، ولا تدهشوا لتلك الصلة الوثيقة العرى التي تربطه بأسرته ؛ فالتربية ، والمحبّة ، والصدق ، هي أشدّ الروابط التي تقوم بين أفراد الأسرة مهما نأوا وتفرّقوا .

« عندما كان والدكم في السادسة من عمره توفّي أبوه، ولم نكن نملك شروى نقير . كان جدّكم حطّاباً ، يقضي معظم أوقاته في الغابة يحتطب .

« وفي ذات يوم هبّت عاصفةٌ مفاجئة اقتلعت شجرةً ضخمة كان يضربها بفأسه ، فسقطت عليه وصرعته . وبقينا في هذه الدنيا بلا معيل سوى الله . ومنذ ذلك الحين طفقتُ أعمل في بيوت الناس لأقوم بأود طفلي ، فكنّا نحيا على الكفاف . ولكن ، على الرغم من الإرهاق والجهد والفقر ،فقد عقدتُ النيّةعلى إلحاق ابني بالمدرسة ليتثقّف كبقيّة أبناء القرية ، واستطعت ، بفضل ما بذلته من جهد ، وما تيسّر لي من معونة ، أن أدفع نفقات دراسته الابتدائيّة . وكأنّما أدرك والدُكم مقدار العناء الذي

أقاسيه من اجل توفير المال ، فضاعف الجهود ، وأخذ يتفوّق على بقيّة زملائه ، فكانت السعادة تغمر قلبي وأنا أراه يتدرّج من صفٍّ إلى آخر ! وكم كان سروري بالغاً حين نال شهادته الابتدائيّة ، ووقف مدير المدرسة يعلن فوزه على الملإ وأضاف :

ـ وعلى هذا ، فقد قرّرت إدارة المدرسة أن تقدّم لهذا الطالب منحة سنويّة ليتابع دراسته الثانويّة في مدرسة المدينة !

« فتعالى تصفيق الناس ، وأقبل الأهل والجيران يهنّئونني بنجاحه الباهر . وفي تلك الليلة لم أستطع أن أنام من شدّة السعادة ، فها أنا أرى بواكير ثمار تعبي ، وأجنيها بسرور !

« ومضت خطى الأيّام وئيدة ، واستمرّ والدكم في كفاحه المتواصل ، يصل آناءَ الليل باطراف النهار ، مكبّاً على دروسه ، مواظباً على صفوفه . وفي بعض الأحيان كان يعطي بعض الدروس الخصوصيّة ليخفّف عنّي بعض أعباء الحياة ، فكنت أراه ينمو عقليًّا وجسديّاً يوماً بعد

يوم ، فتخامرني السعادة ، وتراودني الأحلام ، فأُحسّ
بأنّني قد وجدت للحياة معنى آخر ، أروع بكثير من
المعاني الأخرى التي تلقّنتُها عبر الزمن .

« وأخيراً حلّ اليوم العظيم . فقد أنفقتُ ستّ سنوات
عددْتُ أيّامَها بأصابعي . واجتمع ذوو الطلاّب في ساحة
المدرسة الرحيبة . وإذ كنت فقيرة الحال لم أستطع أن
أشتري لنفسي ثوباً جديداً ، فأصلحت أفضل ثوبٍ لديّ ،
وارتديته ، وجلستُ في المقاعد الخلفيّة أتفرّس بولدي ،
عن بعد ، فأرى محيّاه يشرق بنور باهر هو نور الحلم الذي
تحقّق ، فينعكس هذا النور على محيّاي ويضيء في عينيّ
كما يضيء في قلبي . واغرورقت عيناي بالدموع !

« وكما تفوّق والدكم في صفوفه الابتدائيّة تفوّق
أيضاً في مرحلته الثانويّة ، وبعد ما تسلّم الطلاّب
شهاداتهم ، ودوّى المكان بالتصفيق ، أشار المدير بيده إلى
الجمهور ، فخيّم الصمت وقال المدير :

ـ من عادة المدرسة أن تقدّم مداليّة تقدير للطالب
المثاليّ في هذه المدرسة ، وقد رأت هيئة الإدارة أن تكون

هذه الميداليّة ، في هذه السنة ، من نصيب ...

« وضاعت الكلمات في التصفيق الحادّ الذي تجاوب
في أرجاء الساحة ، وشاهدت والدكم ينهض من مكانه ،
ويقترب من المدير ، ويُسِرُّ إليه ببعض الكلمات ، ثم
يخترق صفوف الناس إلى أن وصل إليّ ؛ فقبض على يدي ،
وجرّني إلى المنبر حيث يقف المدير ، فسرت خلفه ،
بخطى متعثّرة ، حائرة ، وعيون الناس جميعها محدقة بنا .
وبدا لي أنّني أسير في شبه حلم غريب تخالطت فيه
الرؤى ... وصعدت الدرجات المفضية إلى المنبر ، من غير
وعي منّي ... وسمعت صوته يقول :

ـ أنا لست أستحقّ هذه الميداليّة ، لأنّها من حق
هذه الوالدة التي ضحّت بكلّ غالٍ ونفيسٍ في سبيل
تنشئتي وتعليمي . هذه الميداليّة هي من حقّ اليدين
المعروكتين ، والوجه المتجعّد ، والقلب الكبير الذي
أحبّني بكلّ ما في كيان الأمّ من المحبّة ! ..

« ومرّة أخرى ضجّ المكان بالتصفيق الحادّ والهتاف .
وبدا لي أنّ الناس نهضوا عن مقاعدهم تحيّة لي ! ومن

خلال العبرات التي غصّت بها مآقيّ رأيتُ مدير المدرسة يصافحني ، ويشدّ على يدي بحرارة ، ويقول :

ـ لقد أنجبت ابناً باراً ورجل بيت !

« والحقيقة يا أولادي أنّني أنجبت ابناً يكون مثالاً لأجيال قادمة من أبنائه وأحفاده .

« فلا تعجبوا إن حالف التوفيق أخاكم ، فالروح التي نمت في صدر أبيكم قد تفيّأتم كلّكم ظلالها ، وارتوى منها أخوكم » .

٧

أُجير

كان كلّ ما فيه ينمّ عن الألم العميق : عيناه الواهنتان ، وشفتاه الراعشتان ، ونظراته القلقة التي تطلُّ على الحديقة المظلمة . كلّ ما فيه يتعذّب ، حتى ذهنه كانت تثور فيه الذكرياتُ الحزينة التي يتجاوب فيها الفراغُ الرهيب : هنا ، في هذه الحجرة الباردة التي ضمّته لأوّل مرّة منذ أكثر من سنتين، وهناك ، تحت ظلّ شجره البرتقال التي تفيّأها ، وخلف المنضدة التي تكوّر وراءها منذ بضع دقائق يسكب بقيّة لهاث قلبه على الأوراق . إنّه يكتب بجنون ، وأنغام موسيقى الجاز الصاخبة تدوّي في أذنيه كالرعود ، وتثير في نفسه ثورةً مكظومة تسري في قلمه فيجنّ ، ويظلُّ يكتب ، ويكتب ، من غير كلل .

وحين اعتراه الوهن تحرَّك من مكانه، ووقف خلف زجاج النافذة يتطلّع إلى بيت الدكتور «عصمت» حيث تتراءى له أشباحٌ تتراقص على جدران قاعة الاستقبال، وتتكسّر شعاعاتُ الثريّا على أوراق الأشجار، فتصل إليه شاحبةً. هناك، في تلك اللحظة، شعر أنَّه دفن جثّة حبّه.

منذ هنيهات قصيرة كان يرسم لوحة فنيّة لوّنها من مشاعره. كان يقف أمام «نجوى» في ذلك الحفل البهيج يتأمّل محيّاها الذي يطفح بالنور. فكلّ قطعة من هذا الجمال توحي بالف قصيدة يصوغها شيطان شاعر عبقريّ، ولكنّه كان يقرأ في عينيها نفسَه، هذه النفس التي تاهت في خضمّ من الاضطراب. وكان يرى مسحة من الرثاء تغيم على وجهها وهي ترمقه من بعد، فتختنق في حلقه غصّة موجعة وكأنَّ يداً مجنونة تقبض على قلبه. ولكن من هو؟ ولو عرفتَ لأطلقت ضحكة ساخرة تصخب بالفضاء. إنَّه أجير في عيادة والدها الطبيب، يقضي النهار بكامله على كرسيٍّ قديم بجوار العيادة، لقاء مئة وخمسين ليرة وحجرةٍ بالية في ركن الحديقة يأوي إليها. وفي هذه الليلة

كان خادماً في حفلة خطوبة «نجوى»، يحمل الكؤوس إلى المدعوّين الذين جاؤوا ليؤبّنوا قلبه. كان يحمل إليهم كؤوس الشراب وصدره يئنُّ أنيناً خافتاً، وكأنّه نواح طفل صغير افتقد أمّه، بل كثيراً ما كان يجمد في مكانه مشدوهاً، وكأنَّه في عالم آخر كلّه ذكرياتٌ يحلّق به وهو يسكب على «نجوى» نظراته الثائرة، ويهمس لنفسه:

ـ كم أحبّك يا «نجوى»! ولكنْ ما جدوى الحبّ الذي لن يرى النور؟ إنَّه موت بطيء أفنى فيه.

وأفاق على صوت «الخطيب» يأمره بتوزيع الشراب، فالتفت إليه غاضباً وكأنّ تمرّده كلَّه تجمَّع مرَّة واحدة في قبضته. ولكنّ عيني «نجوى» مسحتا دماء جراحه النازفة. إنّه لن يرضى أن يأمره الرجل الغريب الذي حطَّم بيديه كلَّ ما صوّره له وهمُه من الأمنيّات، ولكن لأجل «نجوى» يبتلع الإهانة، ويصغي إلى نداء العقل.

وكأنّما الأسى أجهد نفسه، فأذن له الطبيب أن يعود

إلى حجرته حيث يمكنه أن يبوح بخواطره . ولكن ، قبل أن يغادر القاعة ، ألقى نظرة عميقة على المكان وكأنّه أوصد خلفه أبواب الماضي .

إنّ الذكريات ما زالت تنبع من مخيّلته ، وليس في مقدوره أن يقاوم إغراء القلم المتململ على المنضدة منذ أن ألقاه من يده ، فرجع إلى الأوراق ينثر عليها نفسَه . إنّه أجير يخفي بين ضلوعه قلباً يخفق بالحبّ ، ويطوي في صدره رغبة هوجاء في الكتابة. كان يقرأ كثيراً ، ويكتب كثيراً ، منذ أن تعلّم الحروف الأولى ، قبل أن تتقاذفه شوارعُ المدينة . كان يبتاع المجلاّت الرخيصة الثمن بالقروش الضئيلة التي يوفّرها من عمله في نهاية كلّ شهر ، ثم يعكف على قراءتها، إلى أن طوّحت به المقاديرُ إلى بيت الدكتور « عصمت »، فكان ، كلّما انفرد في حجرته ، ينهمك بالكتابة حتى ساعة متأخرة من الليل ، ثم يلمّ الأوراق التي سوّدها ، ويخفيها تحت الوسادة . وفي كلّ قصّة دبّجها يراعُه كان يبحث عن شيء مفقود لم يعثر عليه بعد . كان يحسّ أنّه في حاجة إلى دفقة من الحياة

تحرّك أعماقه وتنفعل في قلمه ، بَيدَ أنّ الجفاف كان نصيب كلّ قصّة . إنّ كلماته باهتة لا تنبض ! حتى هبّت عليه نسمةٌ رقيقة من نسائم القَدَر !

*

تذكّر أنّ أجنحة الغروب كانت يومذاك تنتشر في الأفق الشرقيّ السحيق حين أغلق باب العيادة وانطلق إلى حجرته ، ولكن اعترته الدهشةُ حين رأى « نجوى » تقف على عتبة الغرفة وتنظر إليه بعينين ضاحكتين . وقبل أن ينبس بكلمة قالت له بصوت عذب :

ـ آسفة ، فأنا لم أكن أنوي الدخول إلى حجرتك ، ولكنّ نزوة طارئة انتابتني حين كنت أتجوّل في الحديقة فما وجدت نفسي إلاّ هنا .

فأجابها وهو يحدّق بجمالها :

ـ إنّها حجرة لا تستحقّ مثل هذا الشرف يا سيّدتي .

وخيّم عليهما الصمتُ ، ولكنّه شعر أنّها تودّ أن تقول شيئاً . وكأنّما أدركت « نجوى » ما يطوف بذهنه ، فقالت له :

- لقد قرأت قصّتك « درب النّور ».

- قصّة « درب النور » ؟ !

- أجل ، فقد عثرت عليها على المنضدة ... إنّها رائعة !

وتذكّر آنئذٍ أنّه خلّف هذه القصّة مبعثرة على المنضدة ، فأطرق نحو الأرض مرتبكاً . وسمعها تقول :

- ألم تكتب سواها ؟ إنّي أحبّ قراءة القصص . هل لك أن تطلعني على ما كتبت ؟

وأحسّ بالنشوة تغمر نفسه لأوّل مرّة في حياته ! فهذه « نجوى » الفاتنة تجد فيه شيئاً مثيراً، هو ما ينطق به قلمه ، بعد أن كان موقناً أنّه كومة مهملة لا تستحقّ الحياة ؛ فأسرع نحو الداخل ، وحمل إليها كلّ ما كتبه ، وأخذ يقرأ لها وكأنّه يقرأ شيئاً جديداً لم ينبثق عنه ؛ حتى صوته كانت ترتعش فيه اللهفةُ ، إلى أن سجا الليل ولم يبقَ يرى الكلمات بوضوح . ورفّ صوتها الحنون كنغم كان في سكينة المساء قائلة :

- إنّ في أعماقك نفسَ شاعرٍ وقلبَ إنسان .

ومنذ تلك الليلة أصبحت لهما جلساتهما الهادئة التي تبعث فيه حياة عنيفة . وصار يرى أنّ له في خيالها تمثالاً معبوداً يحظى بانتباهها ؛ وصارت تعيره الكثير من كتبها الأدبيّة وتناقشه في كلّ ما يكتبه ، وابتدأ يتسلّق قمّة الحبّ ، وابتدأ يمزج في كلّ قصصه العنصرَ المفقود الذي وجده في « نجوى » . وشرعت هي تقوده نحو المجد ، فأوحت إليه أن يرسل القصّة الأولى إلى الصحف ؛ ولكنّ رجفة قلقة دبّت في جسده فتردّد ، فهو يخشى أن يرتطم بالصخور ويخفق . غير أنّ « نجوى » أخذت منه الأقصوصة وألقتها في صندوق البريد ، وإذا بها تحتلّ مكانة مرموقة في الصفحة الأدبيّة من إحدى الصحف . وتقاسما هذا النصر معاً ، ورأى نفسه يكبر ويكبر حتى أصبح عملاقاً يعانق السحاب . وفي غمرة الفرحة غفل عن الحقيقة الموجعة ، وهي أنّه أجير ، وهي ابنة الطبيب ! أجل ، كانت كلّما جلست بجواره تنصت إليه وهو يقرأ ما سكبه في الليل ، يحسّ بأنفاسها العاطرة تلفح وجهه فتسكره . ولكنّ نذيراً

خفيّاً كان يحذّره كلّما همّ أن يعترف لها بحبّه، فيحجم.
وطالما كان الوهم يستأثر بخياله، فيصوّر لكلّ حركة من
حركاتها معنى يتلاءم مع شعوره وأحاسيسه. إلى أن رآها
ذات يوم بين أشجار الحديقة تتجوّل برفقة شابّ وسيم
لم يرَه من قبل، فأحسّ بوخزات الإبر تدمي قلبه،
وبأنياب الغيرة المجنونة تنهش صدره. وكأنّما ضباب
كثيف لفّ ذهنه، فوضع رأسه بين يديه، وغرق في بحر
من الذهول. وعرف فيما بعد أنّ هذا الشابّ الوسيم هو
خطيب «نجوى»! وحين جاءت إليه في اليوم التالي ليقرأ
لها ما صبّه يراعه، وجدَتْه واجماً يحدّق في اللانهائيّة
حائراً. فهزّها منظرُه الحزين، وحاولت أن تستشفّ
ما يدور بخلده، ولكنّه أبى أن يحدّثها بشيء، وغمغم بكلمات
متقطّعة، وغادرها... كانت أعصابه تنوء، وكان رأسه
مسرحاً صاخباً للخواطر. إنّه يدرك الآن أنّها لا تكنّ
له غير العطف... إنّها تعطف عليه لأنّه وحيد، وتشجّعه
لأنّه لم يجد إنساناً آخر يشجّعه، بل يُخيَّل إليه أنّها كانت
تتصدّق عليه بعطفها وترثي له! فعرته خيبةُ أملٍ مريرة،
غير أنّه ظلّ يمنّي النفس: فما دامت هي بقربه فإنّ قلبه

يستكين هادئاً إلى نغمات صوتها وتألّق عينيها.
ولكنّ ابنة الطبيب لم تحفل به كما كانت تفعل من
قبل، ولم يبقَ في وسعه أن يراها إلاّ لماماً: تلمحه من
بعيد فتحيّيه، ثم تختفي وراء الجدران، ويظلّ في مكانه
وكأنّما الأرض شدّت قدميه إليها. وحقد على الرجل
الدخيل، وحقد على كلّ من يحاول أن يقترب منها، فهم
ياخذونها منه وهو أحقّ بها منهم كلّهم لأنّها جزءٌ من
حياته. ولكن ما جدوى أن يصرخ ويهتف؟ لم يبقَ له
في قلبها سوى ضباب ذكرى بعيدة. إنّه يحسّ الآن بمقدار
البَون الكبير الذي ينمو بينهما يوماً بعد آخر، ويتلمّس
الفروق التي انتصبت أمامه فجأة تهدّده، هذه الفروق التي
لم يكن يقيم لها أيّ وزن حين أغمض عينيه على صورتها
فنامت بين أجفانه.

★

وأفاق من خواطره على وقع خطوات رفيقة
خلفه، فالتفت؛ وراعه أن يرى «نجوى» تجتاز عتبة
باب حجرته وتقترب من المنضدة التي يصبّ عليها ذوب
خواطره! فجمد اليراع في يده، وتسارعت خفقات

قلبه ، وخيّل إليه أنّه ينصت إلى رفّة صوتها من خلال شبه الغيبوبة التي اعترته :

ـ أتكتب الفصل الأخير من قصّة حبّك ؟

فتمتم وأجاب :

ـ قصّة حبّي !.. آه !. إنّني ...

وعلقت عيناه بعينيها، وعضّ على شفته السفلى خوفاً من أن تندّ عن صدره حشرجةُ الألم ، وحاول أن يتمالك روعه ، فسألها بنبرة راجفة :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

ـ جئت لأراك .

ـ والحفلة ، والخطيب ، ووالداك ، والناس ؟.. هل تركتِهم جميعاً ؟

فهزّت رأسها ، وتفاقمت دهشته ، وعاد يسألها بعد أن نهض عن مقعده :

ـ وماذا تريدين منّي ؟

فحدّقت إليه ، ثم غضّت من بصرها ؛ وبعد برهة صمت أجابت :

ـ لقد خدعت نفسي طويلاً ، وأوهمتُها أنني لا أحبُّك ؛ ولكن ، في هذه الليلة ، أدركتُ أنّني أسأت إلى نفسي كما أسأت إليك ، فجئت لأكفّر عن ذنبي ، وأقول لك : إنّني أحبّك !

فسرت في جسده رجفةُ غبطة يشوبها الخوف ، وهتف :

ـ وخطيبك ؟

فأجابت بإصرار :

ـ غداً سأفصم علاقتي به ، سأحدّثه بالحقيقة ، وسأنتظرك ريثما تحقّق طموحك . بل إنّني سأقف بجانبك ، يوماً بعد آخر ، ولا بدّ أن تبلغ غايتك ، وتشقّ طريقك في الحياة . أنت قويّ ، أنا أعلم هذا ، ويمكنك أن تصعد ، وتصعد ، فتتعلّق أنظار الناس بك ، كما تتعلّق بالنجوم ... إنّني أحبّك كما أنت ، ولكن لن أقف بطريق طموحك ، بل سأغذّيه بحبّي ... إنّ حفلة الليلة كانت ضروريّة لأدرك حقيقة نفسي ، كانت المحكّ ... وها أنا قد عرفتها ، فجئت إليك .

فتألّقت في عينيه سعادةٌ غامرة ملأت عليه دنياه ،

وأراد أن يقول شيئاً ، فاخفق ؛ وفي تلك اللحظة لاح من خلال النافذة قرصُ القمر المضيء وكأنّه يبارك حبّهما ، فغمغم :

– إنّ النجوم تومض أحياناً حتى في الليالي الحالكة السوداء .

وكأنّما القمر ابتسم ، وغاب وراء سحابة عابرة .

وفي تلك الليلة مزّق الفصلَ الأخير الحزين من قصّة قلبه المحبّ .

خيط من أمل

خطوة واحدة ... خطوة فقط ... ثم ينتهي كلّ شيء !..

وتراقصت الهوّة السحيقة المظلمة في عينيها ، حتى بدت الصخور الناتئة وكأنّها أشباحُ عمالقة تتواثب في رقصة مجنونة من رقصات الموت ؛ وضجّ هدير البحر في أذنيها وكأنّه موسيقى جهنّمية تعزفها الجنّ ،وزحفت إلى رأسها غمامةٌ ضبابيّة متكاثفة تجاوبت في أرجائها صيحاتٌ مروّعة ، حتى اختلطت عليها الصور ، فباتت لا ترى سوى هوّةِ العتمة قد فغرت فاها الرهيب لتبتلعها !

وشيئاً فشيئاً أحسّت بالدوار العنيف ينتاب جسدها،

فترنّحت قليلاً إلى الأمام ... أجل ... خطوة واحدة
وتضع حدّاً لموكب آلامها وأحزانها . وكأنّما هذه الفكرة
الكئيبة هزّت مشاعرها ، فتمطّت الذكريات في عروقها،
وابتدأت تستعيد في ذهنها صوراً باهتة متقطّعة من
حياتها ...

من أين تبدأ ؟ إنّها لا تدري ! فكلُّ ما تعرفه أنّها
فتاة لاجئة خرجت مع شقيقها ذات ليلة عيد من قريتها
القابعة على سفح الجبل ، وقد اقتحمها الصّهاينة، وبذلك
فقدت كلّ ما تملكه من عروض الدنيا ... وجاءت إلى هنا
معه تستمدّ من شبابه الفتيّ بقيّة أملٍ تلهث في صدرها،
وتستعين بإيمانها بالله .

وظلّت في هذه المدينة موزّعة النفس بين الماضي
والحاضر ، وبين الماضي والحاضر هاويةٌ غريبة مفقودة لا
يتسنّى لها أن تدركها : فهي لا تدري كيف هربت منها،
وكيف قفزت من فوقها ولم تقع . ورضيت أن تعيش كما
هي ، في انتظار اللحظة المقدّسة التي تعود فيها إلى أرض
الوطن .

ومضى أخوها يكدح طوال النهار ، ويستنزف عرق
جبينه في سبيل أن يعيش كريماً في خيمته البالية التي
لا تكاد تقيهما برودةَ الليل وقيظ النهار . وكأنّما الجهد
الذي بذله الفتى أرهق جسده النحيل ، فدبّ فيه الإعياءُ
والضعف ، واستبدّ به المرض . ورويداً أخذ شبح الموت
يقترب من باب الخيمة التي لا تتردّد فيها سوى أنّات
المريض الخافتة وتأوّهاتِ قلب أختٍ جريح !

وأطلّ الموت برأسه الأشعث الرهيب ، وبمحيّاه
القاسي ... وارتفعت قهقهته الضارية مفزعةً وحشيّة !
وفي ليلة كافرة مات أخوها .

وصخبت هذه الكلمة كضجيج هائل في رأسها
الصغير : مات !.. مات!.. ووقعت فاقدة الرشد ! وحين
أفاقت خيّل إليها أنّها ترى أشباحاً تروح وتجيء في الخيمة،
وسمعت أصواتاً عديدة تتحدّث بكلمات مبهمة ، ولكنّها
كانت تطوف في عالم آخر بعيد عن هذا العالم ...
ثم حدث كلّ شيء كالحلم المقيت ...
دُفن أخوها في قبر مهجور في أطراف المدينة ،وهِيل

عليه التراب و كأنّهم بذلك يقطعون آخر أمل لها في الحياة،
وزُفّت إليها كلمات العزاء وكأنّها طعنات خناجر
مزّقت قلبها ... وظلّت واقفــة بجوار الضريح تنظر
إليه بناظرٍ أدجنَ جفّ فيه الدمع ، و كفّنتها سحابة من
الصمت المروّع...

وعندما توارت الشمس وراء الأفق وجدت نفسها تمشي
بخطى متثاقلة نحو الخيمة . وتسرّبت إلى نفسها برودةٌ
أقسى من الموت نفسه . كانت تحدّق حولها إلى المجهــول
الغامض صامتةً ذاهلة ، تحاول أن تنفذ إلى ما وراء الغد
الذي كان لا يزال في مدخل الظلمة ... وحين نشر الليل
البهيم جناحيه فوق الروابي السُّود ، استلقت فوق سريرها
كجثّة هامدة تشخص إلى سقف الخيمة ...!

هكذا ابتدأت حياتها الجديدة في عالم لم تعرف عنه
شيئاً .

وانطلقت تجوب بيوت المدينة بحثاً عن لقمة العيش،
فأوصدت دونها سبل الرزق كافّة ، حتى كانت في كثير
من الأحيان تبيت على الطّوى. وكلّما خيّل لها أنّ القدر

قد مدّ إليها يد المعونـة كانت تطلّ عليها نظرةٌ مفترسة
من عيون الذئاب تومض دائماً بالشرّ وتقول لها : « هناك
طريق واحد ... طريق واحد ... »

وفهمت هي أنّ هذا الطريق الوعر المحفوف بالأشواك
هو وسيلتها الوحيدة للحياة ... وفي لحظة ضعف كادت
أن تسقط بها في حُفَر الشيطـــان ، كادت أن تسرق ،
انتصب شبحُ أخيها في عينيها عنيفاً قاسياً يحذّرهـــا
ويناجيها ، فتراجعت مذعورة وهربت .

وظلّت تركض ... وتركض ... حتى وصلت إلى
هذه الهوّة المظلمة عند صخور الشاطىء .

خطوة واحدة ... و ... وترنّحت الفتـــاة مرّة
أخرى ، ورفعت يديها في الفضاء ، وكادت تهوي !

وفجاة ارتفع بكاء طفل شقّ سكون الليل . فتسرّبت
برودةٌ قاسية إلى بدنها ، وجمدت في مكانها مشدوهة .
وتفاقم البكاء حتى أصبح عويلاً متواصلاً طغى على صوت
الأمواج الهادرة ، ودوّى في صدرها ، فانصتت في غمرة

الظلام ، حائرةَ النفس ؛ وبلا وعي تحرّكت من على حافة الهوّة، وأخذت تبحث بين الصخور المحيطة بها ! وهناك ، في بقعة منزوية في جوف صخرة ، عثرت على طفلٍ صغير ملقى في زاوية لا تصل إليها مياهُ البحر ، يبكي من الخوف والظلمة والجوع ؛ فانحنت الفتاة فوقه وتناولته بين ذراعيها ، فكفّ الطفل عن العويل فجاه حالما أحسّ بذراعين حانيتين تضمّانه برفق . وفي تلك اللحظة انجابت السُّحب المتراكضة نحو الشرق عن أشعّة القمر ، فانسكبت على الصخور ، وسقطت حزمة من الضوء على محيّا الطفل البريء . ورأت الفتاة عينين بارقتين ترنُوان إليها بتوسّل ورجاء . وبغتة ترقرقت العبرات في عينيها ، وانحدرت على وجنتيها ، وبلّلت ثياب الطفل . وهمست بصوت وانٍ :

ـ أنت مثلي وحيد ، يا صغيري ... مثلي تماماً ! ولقد التقينا. لا ، لن أتركك ، وأنت لن تتركني. تعالَ معي... تعالَ ... ساكافح من أجلك ، ومن أجل نفسي . لن

أضعف ، لا ، بل لن نضعف كلانا ...

وفي السكينة المهيمنة ، تحت ضوء القمر ، لثمت جبين الطفل البارد، وعادت إلى المدينة وهي تحمله بين ذراعيها.

وتحمل في قلبها خيطاً من الأمل ...

القلبُ الكبير

منذ برهة وجيزة هربتُ من حفلة عقد قران أخي الصغير لأنّني وهنت ، فلم أستطع أن أحتمل أكثر ممّا احتملت ؛ فكلّ دقيقة تجرّعت فيها ألف كوب من العذاب ، وكأنّما الحياة أصبحت في نظري حلقــــة من الأسى .

تطوف بخواطري صورٌ من الماضي تنقّلَتْ فيها خطايَ فوق درب الحياة . وأوّل ما تطالعني ذكرى وفاة والدي وأنا لم أكد أناهز الثانية عَشْرةَ من عمري . في تلك الغمرة الموجعة غرقت نفسي في فراغ رهيب أخذ ينمو يوماً بعد يوم حتى كاد أن يلتهمني ؛ وتلَفَّتُّ حولي أبحث عن عصا أتوكّأ عليها فلم أعثر إلاّ على أخ صغير في

الرابعة من سنيه ، ووالدةٍ مريضة حطّمتها الكارثة . كان الصغير يراني كبيراً كذروة جبل فيتفيّأ حمايتي، وكانت الأمّ تراني صغيراً فيعتصر اليأس قلبها وتشوب نظراتِها الحيرةُ ؛ ومن أمل الطفل الصغير انطلقتُ أخوض معترك الحياة ، ومن قنوط المرأة الضعيفة اندفعت أكافح لأجل البقاء . ليالٍ قاتمة انقضت وأنا أتكوّم على نفسي أرعى النجوم وأتعذّب . وتقاذفتني الأيّام في مهنٍ مختلفة : من صبيّ بقّال ، إلى أجير خبّاز ، إلى خادم في قصر . حياة يائسة تطوي قلباً ليّناً سحقته الأحزان. ولكن كنت، كلّما لمحت ألقة السعادة تومض في عينَـي أمّي ، أحسّ بدفقة حيّة تنتفض في صدري . وابتدأ ضباب القلق ينجاب عن نظراتها ، فكان هذا هو العطاء الأكبر .

وفي ذات يوم التحق أخي « فؤاد » بالمدرسة . وعند الأصيل وقفت أنتظره على ناصية الطريق ريثما يعود . فبدا لي من بعيد يسير متأبّطاً حقيبة كتبه اعتزازاً . كان هذا المنظر رائعاً في عينيّ ، ولكنّه هاج أشجاني حتى كادت مآقيّ تطفر بالعبرات .

لقد مضت القافلة وبقيت وحدي . لِمَ حرمت أنا من برَكة الحياة ! هكذا قُدّر لي ، ولعلّي أموت كي يحيا غيري ويستضيء بالشمعة التي تحترق ...

مضت القافلة وبقيت وحدي .

ومرّ موكب السنين فتحسّست الحياة التي حبلت بي وتمخّضت عن الألم . وإنّي لأذكر كيف كنت أقف تحت ضوء مصباح الطريق وأقرأ في كتب أخي لئلاّ نفقد قطرات زيت السراج الذي نفتقر إليه ، أو أجلس بجواره أتعلّم منه كيف يكتب ويقرأ . ومرّات عديدة كنت أرمق دمعة حزينة تسيل على وجنتَـي أمّي، فأقترب منها، وألثم تلك الدموع بشفتيّ ، وأقول لها :

ـ لا تبكي يا أمّاه ، ما هي إلاّ سنوات قليلة حتى يصبح ولدك طبيباً ، أو محامياً ، أو ...

فكانت تتأمّل محيّاي الشاحب ، ثم تقول لي بصوت خافت :

ـ وأنت ... وأنت ، ماذا يكون مصيرك ؟ ماذا يكون مصيرك ؟

فاصمت مهموماً ، ثم أجيب :

– إنّني أنتظر الساعة التي يخطو فيها « فؤاد » خطوة النجاح .

ولكنّ الوالدة الرؤوم لم تشهد روعة الحلم الذي تحقّق . وعلى الحجارة البيضاء ، بجانب السُّور المتهدّم ، سكبتُ عبرات الفراق بعد أن لفظت أمُّنا لهاث الحياة في ليلة كافرة ، وألقى أخي نفسه على الضريح ينتحب !

مرّة أخرى عصفت بنا الزوبعة ، وتفاقمت عليّ الأحزان. كنت أجد في حنان الأمّ دفءاً وطمأنينة ،أمّا الآن فلن تتجاوب أصداء عواطفي مع أيّ قلب آخر ؛ حتى أخي لن أرضى له أن يسبر غور الحقيقة ، فشبابه الغضّ من حقه أن يورق ويزهر ...

ثم، في فجرٍ خيّمت فيه سحابةٌ من الوجوم، أحسست باقتراب العاصفة . أوّاه ! آن لنا أن نفترق ! ولكنّني قتلت عويل قلبي بين ضلوعي ، وكأنّي شبحٌ أحاول أن أنتصب في وجه الحياة رغم خريف عمري . وقفنا لأوّل مرّة وقفة الوداع : أخي الصغير الذي كنت له أمّاً وأباً،

وأنا الشقيق الأكبر الذي خطّ بيده مصيره . كان هو في طريقه إلى الجامعة ، وكنت أنا في طريقي إلى محراب الوحشة الكئيب ، وبيننا تقف سنون طويلة من الماضي، وسنون أخرى من الغد المجهول . ودوّى هدير الطائرة في المطار وكأنّه نذير الموت ، فاقبل عليّ وعانقني ، فلم أحتمل مرارة الفراق ، فبكيت ؛ ورأيته من خلال جفنيّ الدامعين يلوّح بيديه ويجفّف مآقيه بمنديله الأبيض ، ثم صعد إلى الطائرة ...

وبخطى متثاقلة مشيتُ وحيداً إلى البيت المهجور ، يتردّد في أعماق نفسي نداءٌ بعيد : « أنت وحيد ، أنت وحيد! » فأحسّ بسياط لاذعة تلهب ظهري، وبغصّة في حلقي تخنق أنفاسي . وكانت الطريق تمتدّ أمامي مقفرة تبعث على الانقباض ، فأرى الأشجار النامية على جانبَي الطريق كأنّها أشباح تحدّق فيّ بعيون مظلمة ، وتشير نحوي : « أنت وحيد! » فهدّأت من نفسي التي راحت ترسم لي صوراً غريبة ، إلى أن بلغت البيت ، فتهالكت على أوّل مقعد اعترضني، وأخفيت رأسي بين راحتيّ أحتمي

من شبح خفيّ يطاردني . وفجأة التقت عيناي صورة والدي المعلّقة على الحائط ، فرأيت في عينيه الوداعة والطيبة ، وخيّل لي أنّه يبتسم ... فنهضت عن مقعدي واقتربت منه ، وكلمة وانية تحتار على ثغري :

ـ والدي !..

ثم تأمّلت صورة والدتي المجلّلة بالسواد : كانت ومضة من نور تشعّ من عينيها قرأت فيها معنى الرضى . فحملت الصورتين بين يديّ أسكب عليها نجواي .

وبخطوات بطيئة ، مليئة بالآلام ، مرّت الأيّام حتى هذا العام ، وخطّت من دفتر الذكريات بقيّة القصّة ، وصورة واحدة تتزاحم في ذهني لتتمّ اللوحة .

★

في صباح يوم من الأيّام حانت منّي نظرةٌ من نافذة مخدعي إلى شرفة بيت جيران مهجور ، فرأيت فتاة في ربيع العمر ، ذات شعر ذهبيّ متناثر ، وقوام ممشوق ، ووجه صبيح . وكأنّما خيطٌ خفيّ اجتذب نحوها مشاعري ، فوقفت مشدوهاً أتأمّل هذه القطعة العبقريّة

من الجمال الهادىء ، والحنان . وألقت الفتاة ببصرها بعيداً على الضاحية التي لم تَصْحُ بعد ، ثم لفت انتباهَها حركةٌ خلف سدائل حجرتي ، فتطلّعت نحوي ، ثم دلفت إلى مخدعها وأغلقت نافذتها . أمّا أنا فبقيت وحدي أنتظر برهة طويلة ، فلم أرَ لها أثراً .

وخيّل إليّ أنّ رأسي قد أصبح مسرحاً تطوف به خواطري فتحرّك تصوّراته في اتّجاهات غريبة لم يفكّر فيها من قبلُ ، وتسرّب إلى قلبي خدرٌ لذيذ من عاطفة الحبّ . وعلمت من البوّاب ، فيما بعد ، أنّ جيراننا نزلوا حيّنا منذ أسبوع .

ومنذئذٍ أصبحت « آمال » كلّ حياتي . وطالما نصبت لها في سكون الليل تمثالاً أمامي أناجيه وأحدّثه . كنت أقول لها في قلبي :

« هي شهور قلائل يا « آمال » ثم ألقي بعدها السلاحَ وأستكين بين أحضان البيت هادئاً أصبّ عليك ذوب حبّي وحناني . أنت لي يا « آمال » حياة كلّها أنغام وألحان تنساب في رنّة صوتي ناعمةً ، لأنّك حبّي الكبير الذي أُطلّ من خلاله على عالم من الحياة مُفعَم بالنور

والأمل».

هكذا كنت أحلم كلّما أويت إلى غرفتي.

ثم نال أخي أخيراً إجازة الطبّ من الجامعة، فعاد إليّ بقلبٍ عامر بالإيمان. وبلغت بي الفرحةُ الكبرى حدّاً حلّقتُ معه إلى عالم فاتن من السعادة الغامرة. فمعنى أن ينال «فؤاد» شهادته هو أن أُلقي عن كاهلي عبء الحياة، وأحقّق الحلمَ الذي يراود حياتي. وفي هذه اللحظة تعانقت ذكرياتي برؤى مستقبل حالم. فاجتمعنا معاً، أنا وأخي، أمام صورة أمّنا، خاشعين، ننصت إلى صوتها العميق يختلج من وراء القبر فيوجّه حياتنا نحو درب النور الذي يفيض بالمحبّة. وكانت الدموع أدقّ تعبير تصوّره جوارحنا.

وفي تلك الليلة أقمت حفلة ساهرة دعوت إليها الأصدقاء والجيران، فكانت «آمال» محطّ الأنظار بجمالها الهادئ ولفتاتها الرقيقة.

وانقضت بعد ذلك الأيامُ حتى ليلة العيد. كنت أجلس على الشرفة أرمق النجوم التي تلمع في حواشي

الليل، وأرنو إلى المدينة التي ترامت أمــام باصرتي في السهل المنبسط. كانت المدينة تغفو لحظة بعد أخرى فتنطفئ الأضواء بين جنباتها. وسبحت في التخيّلات بعيداً، ولكن أفقتُ على خطوات «فؤادٍ» خلفي، فالتفتُّ إليه، ورأيته يحدّق بي وكأنّ على شفتيه حديثاً. فسألته:

- ما بك يا «فؤاد»؟

فبدت عليه الحيرةُ، ثم أجاب:

- أخي، أريد أن أحدّثك. أنصت إليّ.

وتطلّع نحو الأفق السحيق، ثم استطرد:

- أصغِ إليّ يا أخي. الآن وقد قطعنا شوطاً كبيراً من مراحل الحياة علينا أن نفكّر بمصيرنا الذي ما يزال يترجّح بين كفّتَي القدر. تطرأ على مخيّلتي أشياء كثيرة، ولكنّ أوّل ما يجدر بنا فعله هو أن نملأ مكان أمّنا الشاغر. أريد يا أخي أن تبحث لك عن زوجة تُضفي على حياتك البهجةَ والراحة، فكفاك ما لقيته من مشاقّ الدنيا الصاخبة.

فابتسمت، وكأنّني به يمهّد الطريق لنفسه أيضاً،

وقلت له :

– وأنت ، أيليق بك أن تنسى نفسك ولا تفكّر بمصيرك أيضاً ؟

فأجابني بصراحة :

– لقد فكّرت كثيراً وعثرت على الفتاة التي أصبو إليها . سأخطبها لنفسي ، ولكن بعد أن تهنأ أنت بين ذراعَي زوجة حنون .

كان « فؤاد » يتحدّث بصوت مختلج ينبض بالكلف الثائر ، حتى تراءى لي أنّ فتاته تتماثل أمامه . فنظرت إليه مغتبطاً ، وقلت :

– حدّثني عنها يا « فؤاد » ، كيف تعرّفت عليها ؟

– آه يا أخي ، ألا تعرفها ؟

وضحك ... ثم تابع كلامه :

– إنّك أنت الذي عرّفتني بها .

– أنا !

– أنت ، إنّها ابنة جيراننا « آمال » .

وجمدتُ في مكاني مبهوتاً وكأنّ ألف مطرقة هوت

على رأسي . « آمال » !.. « آمال » !.. ربّاه ! أتكون هذه هي الخاتمة لحياتي الحافلة بالشقاء ؟ لماذا « آمال » من دون سائر الفتيات ! أهذا هو عدل السماء ، وأكون أنا ، أنا بيدي ، قضيت على سعادتي ؟ لِمَ حكمت الأقدار عليَّ بالعذاب البطيء ، لِمَ ؟ لست أدري . هل أنا أشقى أهل الأرض حتى تصبّ عليَّ جامَ غضبها وتثار منّي ؟ رحمة يا إلهي !

وأخفيت عينيّ براحتيّ ، وقلت بصوت حاولت أن أجعله هادئاً :

– وهل تحبّك « آمال » ؟

– تحبّني ! إنّها تعبدني ، وأنا أعبدها ...

– حسناً « يا فؤاد » . إذهب واخطب ودّ والدها ... لا ، قف ، سأذهب معك ...

★

ألم أقل إنّني قد صرعت غول الأنانيّة منذ زمن ؟

انتصار الحياة

لففتُ قطعة الجبن الصفراء مع شريحة الخبز بورقة كثيفة من أكياس الاسمنت ، والتفتُّ إلى البائع قائلاً :

ـ سأدفع لك غداً .

ـ دائماً غداً ! متى ينتهي هذا الغد ؟!

غير أنّني هرولت تحت جُنح الظلام من غير أن أجيبه ، خوفاً من أن يثور عليّ ويستردّ ما أخذتُه . وفيما كنت أعبر الطريق إلى الناحية الأخرى نحو الخرائب تعثّرتْ قدمي بحجر كبير ألقاني في حفرة مليئة بالوحل ، وتناثر رَذاذ الطين على وجهي وثيابي المهترئة . وفي اللحظة نفسها سمعت ضحكة مرحة تنتشر في الأفق . فرفعت رأسي أتطلّع حولي بوجــه ملوّثٍ وعينين شبه مغمَضتين .

وعادت الضحكة ترتفع من جديد ، فرأيت فتاة في مقتبل العمر ، تلوح عليها سِيماء الفقر مثلي ، تحدّق إليّ وتقهقه، فعضضت على شفتيّ من شدّة الحنق ، وهتفت بها :

ـ إذهبي !.. إذهبي !

غير أنّها لم تتحرّك ، وبقيت في مكانها تشير إليّ وتضحك . ونهضت أنا من الحفرة وقد تفاقم حنقي وثورتي ، وحاولت أن أُخفي نظرة الشقاء والبؤس التي ارتسمت على محيّاي ، فاخفقت . وبغتة صمتت وقالت :

ـ أنت جريح ...

واقتربت منّي ، وأخرجت منديلها من صدرها وراحت تمسح به الدم النازف من جرح في ذراعي . ورمقتها أنا عن كثب فلمحت على محيّاها الجدّ والانقباض، كأنّها لم تكن تضحك منذ برهة وجيزة . وسمعتها تقول :

ـ خدش بسيط . كان يجدر بك أن تنتبه .

ولاحت لي بسمةٌ شاحبة ترفّ على ثغرها،فهززت رأسي وسألتها :

ـ من أنت ؟

ـ أنا ، ألا تعرفني ؟ أنا « سميحة » بائعة الورد . ألكلّ يعرفونني في هذا الحيّ . وأنت ، من أنت ؟

ـ « نضال » الحمّال ...

وضحكنا معاً ، وكأنّنا قد اجتمعنا في حفل رسمي يقدّم كلّ واحدٍ منّا فيه نفسه للآخر . وآنئذٍ فطنتُ إلى أنّني قد فقدت قطعة الجبن وشريحة الخبز ، فصحت :

ـ أين طعامي ؟

وأخذتُ أبحث عنه بين الأوحال حتى عثرت عليه على حافة الحفرة .

ولحسن الحظّ وَقَت الورقةُ الكثيفة عشائي تلك الليلة من الطين .

وقلت « لسميحة » :

ـ أشكرك !

ـ لا شكر على واجب .

وابتعدت عنها بضع خطوات ، ثم توقّفتُ ، فرأيتها

ما فتئت جامدة في مكانها ترنو إليّ . فتساءلتُ :

– أتتناولين معي عشاءَك ؟

– لا ، شكراً ، لقد تعشّيت .

وخيّم عليَّ بعض الارتباك والقلق، وأردت أن أقول لها شيئاً ، غير أنّها تحرّكت ومضت . وجاء دوري كي أقف أتأمّلها وهي تسير . تأمّلت قامتها المديدة ، وتلك المشية الثائرة التي تتراقص فوق الأرض ، تأمّلت خصلات شعرها التي تهتزّ في الهواء ، وانطبعتْ في ذهني تلك الصورةُ الحيّة لفتنة عينيها. فخفق قلبي، وابتدأ يقفز بين ضلوعي كأنّ حياة جديدة دبّت في عروقه ، وهمست لنفسي :

– بائعة ورد !.. وجمّال !

ثم ضحكت بسخرية ، إلاّ أنّ ضحكتي عـادت فتوقّفت في حلقي كأنّما اختفت ، ورحت أتساءَل :

– ألست إنساناً كبقيّة البشر ؟ أليس لي قلب يحسّ ويخفق ويتمرّد ؟ أليس من حقّي أن أحبّ ، وأناجي الليل ، وأرعى النجوم ، كما يفعل العشّاق ، وأبـوح لخيالي بهواجس قلبي ونبضاته ؟ فما بالي أسخر من نفسي !

وغرقت برهة في صمت مثقلٍ كأنّـي أنعم النظر في خواطري ، ثم أحسست بالجوع ينهش معدتي ، فانطلقت إلى كوخي المتداعي الموحش في الخرائب .

ودارت عجلة الأيّام ...

ودار معها دولابُ حياتي وحبّي ، وإذا بي ألازم « سميحة » في معظم الأوقات ، وأبيع معها الورد في بعض الأحيان... وحين أغادرها خلف رجل دعاني كي أحمل له حقيبة أو صندوق فاكهة ، أتلفّتُ ورائي غيرَ مرّة وكأنّـي أودّعها ، وأسمع صوتها يرفّ في أذنيّ قبل أن أغيب عنها :

– أنا « سميحة » بائعة الورد ... وردي يحيي الحب في القلوب ، أحمر ، وبنفسجيّ ، وأبيض ... من كل لون ، ومن كلّ صنف ... يا من يشتري !

فأبتسم بسعادة ، وأقول بصوت خافت :

– لقد ملكتِ قلبي يا « سميحة » !

وفي إحدى الأمسيّات ذهبت لرؤية « سميحة » عند المنعطف حيث اعتادت أن تجلس لبيع زهورها، ولكنّـي

لم أجدها . وانتابني إحساسٌ غريب من القلق والحيرة . شعرت أنّني مقبل على عالم رهيب يتقاذفني ، فاستبدّ بي الانقباضُ . ونظرت حولي أبحث عنهـــا . وتوتّرت أعصابي المرهقة ، وانتظرت عشر دقائق أخرى ؛ ثم نفد صبري ، فدنوت من صاحب حانوت لبيع الخردوات القديمة ، وسألته عن « سميحة » ، فأجابني :

– « سميحة » بائعة الورد ؟

– أجل ، أين هي ؟

– آه ، مسكينة ! لقد دهمتها سيّارة ونُقلت إلى المستشفى الحكوميّ .

– دهمتها سيّارة ؟ ربّاه ! أين هي ؟ « سميحة » ، « سميحة » ... آه !..

وانطلقتُ في طرقات المدينـــة كالمجنون ، أركض وقدماي لا تكادان تستقرّان على الأرض . وطفقت غيوم ضبابيّة تزحف إلى مخيّلتي ، وتلفّهـا حتى تحجب عنها المرئيّات . بتُّ لا أستطيع أن أفكّر بشيء أو أعي شيئاً . وتعثّرت بغير ما شخص ، وأنا أدفع الناس من أمامي .

وكادت إحـــدى السيّارات أن تقضي عليّ وأنا أجتاز الشارع ، وتَصايح الناس حولي ، فلم أعبأ بأحد . وفجأة وجدت نفسي أقف أمام بوّابة المستشفى . وتردّدت برهة ألتقط فيها أنفاسي اللاهثة ، ثم عبرتُ الدهليز وأنا أنقّل أبصاري المشدوهة بين الأبواب المغلقة . وقابلتني ممرّضة راعها ما ارتسم على محيّـاي من أَمارات اللوعة والشقاء ، فسألتني :

– ماذا تريد ؟

– أريد أن أرى « سميحة » .

– « سميحة » ؟ من هي ؟

– « سميحة » بائعة الورد ... بائعة الورد .

وقطّبت الممرّضة جبينهـا ، وزمّت شفتيها ، وغمغمت :

– « سميحة » بائعة الورد ؟! آه ، الفتاة التي صدمتها سيّـارة .

فصحت بجنون :

– نعم ، نعم ، أين هي ؟

ـ هل أنت زوجها ؟

وجمدت في مكاني برهةً مروَّعَ القلب، وتهدَّج صوتي الذي ارتعشت نبراتـه ، وهززت رأسي ، وتنـاهى إليَّ صوتُـها يقول :

ـ تعالَ ، اتبعني ... أعتقد أنّها رقم ١٢ .

ومات صوتي في حلقي وأنا أردّد كلامها :

ـ رقم ١٢ !

ـ نعم ، رقم ١٢ .

أيمكن للإنسان ، في لحظة ، أن يفقد هويّته ويصبح رقماً ؟ وخيّـل إليّ أنّ الفناء أخذ يدبّ في جسدي أنا ؛ وأشارت الممرّضة إلى حجرة في نهاية الممرّ ، فأسرعتُ إليها ألِجُـها على غير وعي منّـي، فانصبّت نظراتي التائهة على جسد ملفوف بالأربطة البيضاء لا تبدو منه غـيرُ عينين بارقتين . ولاح لي أنّ شفتيها تتحرّكان ، فدنوت من السرير بخطى متعثّرة ، وربّتُّ يدَها الواهنة ... وهمستُ :

ـ لا ، لا تقولي شيئاً ! لا ترهقي نفسك ...

فتمتمت بصوت خافت :

ـ ولكن ...

ـ لا تخافي ، ستتعافَين ، وستخرجين من هذا المكان يا « سميحة » ... ستعودين « سميحة » مرّة أخرى ، لن تظلّي رقماً ، إنّ الأرقام من نصيب الأموات ، أمّا أنت ، فما تزالين ملكاً للحياة !..

فتراقصت شبهُ ابتسامة على شفتيها ، وقالت :

ـ ترى ، هل أعيش حقّاً ؟

★

وعاشت « سميحة » ، وانتصرتْ على الرقم الميت . وكانت لي خير زوجة .

إنسان جديد

أشباحٌ ، أو هي ظلال أشباح ، تتحرّك أمام عينيه ، ثم تغيب في ظلمة المجهول ، والضباب يزحـــف ببطء وسكون فوق خياله ، فيكفّن الرُّؤى بلون أبيضَ باردٍ برودةَ الموت ؛ ثم ينتابه دوارٌ غريب ، فيرى كلّ شيء يدور ويموج ، ويخيّل إليه أنّه في حجرة غريبة تتراقص جدرانها وتهتزّ نوافذها ، كأنّ هناك يداً خفيّة تحرّكها فتترجّح في الهواء .

وأحسّ بالغشاوة تتكاثف فوق عينيه وهو مستلقٍ على ظهره ساكناً ؛ فمدّ يده ليفرك جفنيه المتعبين. غير أنّ الإعياء تولاّه ، فتدلّت يده على صدره في تراخٍ ، وظلّت عيناه شاخصتين في شبه غيبوبة إلى السقف العريض الأبيض

كأنّما تعلّقتا به إلى الأبد. ثم ، شيئاً فشيئاً ، انجاب الضبابُ عن ذهنه ، وابتدأ يتبيّن معالم الأشياء التي حوله ، فادرك ، وهو في غمرة ذهوله ، أنّه في إحدى حجرات المستشفى ، فبدت عليه أماراتُ الدهشة ، وحاول أن ينهض من سريره ، ولكنّ ألماً حاداً تفجّر من كتفه ، فتهالك فوق الفراش لاهثَ الأنفاس ، فأغمض جفنيه كأنّه يحاول أن يستعيد شيئاً مبهماً يطغى على ركام مخيّلته . وفجأة تساءل وشفتاه ترتعشان :

ـ ماذا حدث لي ؟

وسمع صوتاً حنوناً :

ـ أصابتك رصاصةٌ !.. إخترقت كتفك فأُغمي عليك ، وحملك رفاقؤك إلى هنا ...

وارتعش « نبيه » حين تناهت إليه تلك الكلماتُ الرقيقة ، ففتح عينيه المثقَلتين ، وتطلّع إلى الممرّضة التي وقفت بجوار سريره ، فابتسمت له بعذوبة وهمست :

ـ أتريد شيئاً ؟

ـ لا ... لا ... شكراً .

ـ لقد جاء صديقٌ لك في أثناء غيبوبتك ، وترك لك هذه الباقة من الورود ، مع رسالة ... أتريد أن أقرأها لك ؟

وأومأ بالإيجاب ، فتناولت الممرّضة الرسالةَ من درج قريب وفضّتها ، وراحت تقرأ بصوت هادىء :

« عزيزي نبيه :

باسم جميع أصدقائك الذين أنقذتهم من موت محقّق ، أحيّيك . لقد ضربتَ مثلاً أعلى في البطولة والتضحية ونكران الذات ، فأرخصت نفسك في خضمّ المعركة حين رأيت أصدقاءك يتساقطون كأوراق الخريف ، وأردت أن تموت ليعيشوا !.. إنّنا جميعاً مَدينون لك بحياتنا أبدَ الدهر . نرجو من الله أن يمنّ عليك بالشفاء والعافية ، واسلم لأصدقائك .

المخلص فريد » .

ودبّت رعشةٌ غريبة في عروق « نبيه » حتى شعر بها تكاد تتفجّر ، فأشاح بوجهه بعيداً عن الممرّضة وكأنّه يفرّ من نفسه . وبدت له ، من جديد ، الظلالُ

المتراقصة على الجدار المقابل ، وكأنّها غيوم متلبّدة داكنة
تقترب منه شيئاً فشيئاً ، وينبعث منها زعيقٌ رهيب
يثير الخوف . وتمنّى في تلك اللحظة لو تتركه الممرّضة
وحيداً مع أفكاره في حجرته .

وانقضت برهةٌ مثقَلة بالكآبة ، ثم تموّجت على
شفته بسمة ساخرة ، وأخذ يحدّث نفسه :

ـ إذاً فأنا ما أزال على قيد الحياة ! لم أمت بعد ، ما
أزال أعيش في خدعة كبيرة خدعت بها أصدقائي فظنّوا
أنّني بطل . إنّني لم أذهب لميدان القتال إلاّ لألقى حتفي
وأهرب من ذكرياتي ! ومع ذلك لم أمت ، بل ألقت بي
الأقدارُ إلى هذا السرير الأبيض جريحاً تخنقني الآلام
وتُقضّ مضجعي ... أمّا « هي » ...

وارتجف خياله حين شدّته الخيوطُ إلى الوراء ،
وأحسّ بمرارة تعذّب نفسه وروحه معاً ، فضغط بأسنانه
على شفتيه قبل أن تفلت من صدره آهة . أمّا « هي » فقد
تخلّت عنه بعدما سخرت منه وامتصّت حياته . أليس
هو كتلة من العظم جرّدتها من اللحم ، ثم ألقت بها بعيداً

بعد أن عثرت على آخر ؟ أجل ! لقد كانت هي السبب في
تقرير مصيره الفاجع ، فهو يعلم في قرارة نفسه أنّه ما
دخل المعركة ليصون الحرّية التي كثيراً ما تشدّق بها أمام
رفقاء السلاح من غير أن يؤمن بحرف واحد ممّا يقول !
ومن يدري ، فقد يكون بينهم من خلّف وراءه مثله
ماضياً بكلّ ما ينبض فيه من ذكريات ، ورمى بنفسه في
أتّون المعركة طلباً للخلاص من قبضة الأمس الرهيب .
نعم ، كانت « هي » السبب في كلّ شيء .

ومرّة أخرى أحسّ « نبيه » بطنين هائل يدوّي في
رأسه ، وكأنّ ألف مطرقة حادّة نزلت على جمجمته دفعة
واحدة؛ فتوتّرت أعصابه،وقسَتْ تعابيرُ محيّاه ، وأنّ ،
غير أنّ خيوط الذكريات راحت تجتذبه إلى أنفاقها
الضبابيّة ، فغمغم بغضب مكتوم : « إنّني أكرهها !
أكرهها لأنّها جعلتني أتمنّى الموت» . فقد وجد أنّ الحياة
أتفه من أن يعيشها في ظلّ شبح اليأس الذي جثم عليه ،
فانضمّ إلى صفوف المتطوّعين يبحث عن الموت . وراح
يقتحم خطوط النار ، والرصاصُ ينهمر حوله كالمطر ،

ولكنّ يد القدر أخطأته فضنّت عليه بالموت كما ضنّت عليه من قبلُ بالسعادة ؛ فكان ، بعد كلّ معركة ، يعود إلى خيمته ، ويتأمّل بزّته العسكريّة المرصّعة بالنياشين والمداليّات ، فيطلق ضحكة ساخرةً مليئة بالمرارة ، ويتهالك على أوّل مقعد يعترضه . لقد أصبح بطلاً على غير إرادة منه !..

وفجأة قفزت إلى ذهنه الحوادثُ ؛ رأى زملاءه « عصام » ، « أحمد » ، « جمال » ، وغيرهم ، يتناثرون في الخنادق والحفر ، وأنصت إلى أنّات الجرحى تتصاعد من خلال الظلمات ، وأصمّت أذنيه نداءاتٌ خافتة ممزوجة بدويّ القنابل ... رأى الموت يحصد رفقاءه محدقاً بهم من فوّهة مدفع منصوب على ربوة مرتفعة ، فزحف على الأرض كالثعبان ، ومضى خطوةً خطوة حتى دنا من سفح الربوة متستّراً بالظلام . وبحركة عنيفة لا شعوريّة قذف المدفع بقنبلة يدويّة أطارته شظايا في الهواء ، ولكنّ رصاصة انطلقت بغتةً فاخترقت كتفه . وقبل أن يفقد رشده كانت هتافات الجنود تشقّ أجواز الفضاء .

فتح « نبيه » عينيه ثانية ، وتلفّت حوله ، فرأى الممرّضة الحسناء ترنو إليه برفقٍ وتسأله :

– هل أنت بخير ؟

– نعم .

وبقي يرمقها بكآبة . وقالت :

– إنّ الحزن يرتعش في عينيك ، فهل هناك ما يزعجك ؟

صمت قليلاً كأنّه يفكّر ، ثم قال :

– لا شيء البتّة ، ولكنّني منقبض النفس .

وشردت نظراته إلى الأفق من خلال زجاج النافذة وكأنّه يترقّب شيئاً ، وأخذت الخواطر تهاجمه من جديد ، فتساءَل في استنكار :

– هل تستحقّ « هي » أن أموت من أجلها ؟

وهزّ رأسه ساخراً . وبغتةً اتّسعت حدقتا عينيه دهشةً ، واحتار على شفتيه سؤالٌ غريب :

– لِمَ خاطرت بنفسي يوم أمس ؟ ألأنّي كنت أطلب الموت ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

وغرق في تفكير عميقٍ حمله إلى عالم آخر . لم يكن يطلب الموت آنئذٍ ، بل لم يخطر الموتُ على باله ،ولكنّه خاض المعركةَ لأنّه رأى أصدقاءه يموتون أمام عينيه،و . . .

وارتخت أعصابُه المتوتّرة ، وتألّقت على شفتيه ابتسامةٌ هانئة سعيدة ، وهمس :

ـ لقد التقيتُ مع نفسي من جديد ! فانا ،الساعةَ ، أؤمن حقّاً بقضيّة !

دمامة وعطر

يوم أمس وصلتني رسالةٌ غريبة . . .

وأخذت أتأمّل الغلاف الأزرق المعطّر ،وأماراتُ الدهشة ترتسم على محيّاي . لم يكن في مظهر الرسالة ما يثير الانتباه ، أو يدعو إلى الدهشة . . . ولكنّ هذه الرائحة التي تفوح منها هي رائحة العطر . . .وقطّبت جبيني مفكّراً، وحاولت أن أتذكّر . . . ولكنْ عبثاً كنت أحاول . ربّما الأعوام الستّون التي مرّت بي، حتى وَخطَ الشّيبُ شعر رأسي ، قد أرهقت ذاكرتي فلم يبقَ في وسعي أن أذكر شيئاً . وأخيراً مددت يدي ، وفَضَضْتُ الرسالة ببطء وتأنٍّ يتلاءمان وسنّ الشيخوخة، وابتدأت أقرأ . . .

« عزيزي مجدي ،

« هذه هي المرّة الأولى والأخيرة التي أكتب فيها

إليك ... إنني امرأة بائسةٌ كُتب عليها أن تظلّ رهينة منزلها ، تضمّها جدران أربعةٌ صمّاءُ لا حياة فيها، يفتقر قلبها إلى الدفء والحنان... امرأة لا تعرف من دنياها غير الألم الممضّ والحزن الدفين. إنني أكتب إليك هذه الكلمات لأنّني أدرك تماماً أنّنا لن نلتقي ، فقد أوشك الستار أن يُسدَل على مسرحيّة حياتي التي دارت خلف الكواليس، فلم يشاهدها الجمهور، ولم يصفّق لها المتفرّجون. مسرحيّة هي أشبه ما تكون بالموت البطيء ، مسرحها صدرٌ ينبض بالحبّ ، وقلبٌ يذوب أسىً وحرماناً . والصمت يكفّن حياتي بسرٍّ كئيب يحطّم كبريائي ويحرمني من مباهج الحياة ولذاذاتها . وكان خيراً لي أن أموت ألف مرّة من أن أبقى على قيد الحياه أتجرّع أكواب التعاسة قطرةً قطرة .

« أنت لا تذكرني ، ولن تذكرني ، لأنّك لم ترَني . وكيف يمكنك أن ترى فتاة اعتصمت بخدعها لا تبرحه ، تتسلّل نظراتها من خلال النافذة إلى الطريق المزدحم بالمارّة من غير أن تجرؤ لحظة واحدة على الخروج إلى

الشارع أو مواجهة الناس؟ ما أبشعَ هذه الصورةَ التي أرسمها لنفسي ! ولكنّها صورة حقيقيّة لا زيف فيها ، ولن أحاول أبداً أن أضع عليها المساحيق ، أو أضفي على قصّتي ألواناً ملتهبة أمزج فيها الخيالَ بالواقع ، وإنّما كلُّ همّي أن أبوح لك وحدك بما يخالج فؤادي ، مع أنّ شمس حياتي قد أفلت، وليل الموت قد أخذ يزحف نحوي.

« أنا الآن في الخامسة والخمسين من عمري ، امرأة عفّى عليها الزمن ، وعبثت بمصيرها الأقدارُ ، امرأة دميمة جداً !..

« هذا هو سرّي الكئيب . وقد استحالت دمامتي في نفسي خوفاً رهيباً تملّك حياتي وأوثقني به إلى الأبد ، فبتُّ ، وشبح الخوف يلاحقني كظلّي حيثما أسير ، محرومة من كلّ أمل قد يبدو في عينَي الناظر إليّ ... ولم يتولّد هذا الشعورُ في نفسي من لا شيء ، ولكنّ الناس وحدهم هم الذين زرعوا في صدري بذور الكراهية ، فحقدت عليهم وعلى نفسي ، فتواريت بعيداً أستسلم لرحمة الألم والمرارة .

«أنت لا تدري مقدار العذاب الذي كنت أعانيه كلّما خرجتُ إلى الطريق ، لأنّك رجل ، وقلّما يدرك الرجال أحاسيس المرأة ودقّة مشاعرها . إنّني ، فيما أكتب إليك ، أستعيد في ذهني حادثةً واحدة كان لها أبلغ الأثر في نفسي ... كان هذا منذ ثلاثين عاماً ، واضطررت أن أترك سجني وأخرج إلى الطريق لأدعو الطبيب لوالدتي المريضة ؛ وبينا كنت أجتاز إلى الرصيف الآخر سمعت أمّاً تقول لابنتها :

– أسكتي ، وإلاّ دعوت لك تلك الغُولة لتأكلك !

وجمدت في مكاني مشدوهة كأنّما ألف مطرقة هوت على رأسي دفعة واحدة ، وشعرت بأعصابي تئنّ وتتوجّع ، وخيِّل إليّ أنّ الأرض تميد بي، فتمنّيت في تلك اللحظة لو أنّ الأرض تفغر فاها وتبتلعني ! ربّاه ! أنا غولة ! وعدت أدراجي إلى البيت ، وأنا لا أدري كيف وصلت ، ولا أيّ طريق سلكت . كان صوت رهيب يدوّي في مسامعي : « أنت غولة ! أنت غولة ! » فاندفعت صوب مخدعي ، ووقفت أمام المرآة أتأمّل وجهي . وتراءى لي

بالفعل أنّني غولة ، واجتذبتني دوّامة مجنونة إلى الهاوية ، وإذا بي أحمل المقصّ بيدي وأرفعه لأطعن به الدمامة التي تجسّدت في وجهي . وبغتة ارتفع صوت أمّي يدعوني ، فاستيقظت من الغيبوبة المحمومة ، وتهالكت فوق أوّل مقعد اعترضني .

« كانت والدتي هي الصلة الوحيدة التي تشدّني إلى الحياة ؛ فقد مات والدي وأنا في الخامسة من عمري ؛ فكفته السماء مؤونة العذاب والتوجّع لفتاته المنبوذة ؛ أمّا أمّي فكنت أقرأ في عينيها أعمق آيات الشقاء وكأنّها تلوم نفسها لأنّها ولدتني .

« ومضت قافلة الحياة في طريقها الشاقّ . وفي ذات يوم رأيتُكَ ...

« كنت أقف خلف النافذة بعيدة عن أعين الناس ، وكانت الثورة الجامحة تتمرّد في نفسي وتعصف بكلّ كياني . وفجأة عبق أنفي برائحة عطرٍ شذيّ ، فتنفّست بملء رئتيّ ، وتطلّعت إلى الطريق فرأيتك ، وأحسست

بقلبي يخفق بعنف . ما أعجبَ تَصاريفَ الحيـــاة يا «مجدي» ، فأنت لست الرجل الوحيد الذي شاهدته في الطريق ، ولم تكن أجملهم ، بل لم يكن فيك ما يميّزك عن سواك من الرجـال ، ولكنّ رائحـة العطر ..! آه ! رائحة العطر اجتذبتني إليك في بادىء الأمر .

«ثم تواريت عن عيني كأيّ غريب أراه ، وبقيتْ منك ظلالٌ باهتة كانت تراود خيالي بين لحظة وأخرى . وكم مرّةٍ سخرتُ من نفسي فانطلقت ضحكاتي هازئـــة قاسية مجلجلة في أرجاء غرفتي ، ثم تلاشت في مزيج من البكاء والعويل !

«ولكنْ ، يوماً بعد يوم ، كنت أراك ، تمرّ بي كسرٍّ مبهَم لا أدري عنه شيئاً ، أشبه ما يكون بالطّـيف ، ثم تمضي في طريقك من غير أن تلتفت يميناً أو يساراً . وفي كلّ مرّة كنت أَشعر قوىً خفيّـــة تتسلّل منك إليّ وتدفىء قلبي المقرور .

«وطالت جلساتي الصامتة في هذا المحراب الذي أتعبّد

فيه ، كأنّما الدنيا كلّها أصبحت نظرة واحدة أختطفها منك فتتبلور في وجداني وتستقرّ في أعماقي ؛ وأدركت أنني أحبّك ... ما أرهب هذه الكلمة في مسمعي ، لأنّها تعني الموت بالنسبة لي ! ولم أصدّق في بادىء الأمر أنّني أحبّك ، وأخذت أتهكّم على نفسي وأهزأ بها هامسة: «أنا غولة ، فهل للغولة أن تحبّ ؟ إنّ من يراني تشمئزّ نفسه منّي ويفرّ من طريقي» . ولكنّ الصمت يعود فيخيّم عليّ ، وتثقل الكآبة على قلبي المتفجّع ، وتلوح لعينيّ صور تلفّها سحابةٌ من الضباب ، فأغمض جفنيّ ببطء كي أعانقك بخيالي ، ثم أفيق مذعورة على نفسي ، وأتلفّت حولي خوفاً من أن يراني أحد فيسخر منّي .

«وكانت هذه التمثيليّة تتكرّر كلّ يوم تقريباً .

«وأخيراً كان لا بدّ للأقدار أن تضع حدّاً لعبثها ، فاختفيتَ عن عيني مدّة طويلة شعرتُ فيها بالوحشة تلتهمني وتمزّق صدري وأعصابي . وانتابني الخوف والقلق ، وكأنّني كنت أستمدّ منك ، بالرغم من كلّ شيء ، سرّ شجاعتي ...

« وحين رأيتك بعد ذلك كنتَ تتأبّط ذراع فتاة جميلة !

« ماذا يمكنني أن أكتب إليك الآن ؟ فمع أنّه انقضى ما لا يقلّ عن ثلاثين عاماً على هذا المشهد الأليم ، فإنّني ما أزال أشعر بالغيرة تتآكلني كلّما تذكّرت . كنت أحبّك يا « مجدي »، وكنتَ لي وحدي ، أضمّك إلى صدري في عالم الخيال ، وأغدق عليك كلّ حناني وعواطفي !.. كنت الشعلة التي تتّقد في جوانحي ، وتلهب خيالي بصورة رائعة ، فينصبُّ الأمل في قلبي بالرغم من الانطواء القاسي الذي فرضتُه على نفسي .

« ولكنّي الآن فقدت حتى هذا الشعاع الضئيل من الأمل .

« لم يكن في مقدوري أن أتخيّلك لوحدك ، فكلّما حاولت أن أفصلك عن هذه الفتاة الجميلة تدفّقت إلى ذهني رؤى غريبةٌ مفعمة بالألم؛ فألفّ الوسادة حول

رأسي ، وأتقلّب فوق سريري كأنّني أهرب من شبح يهاجمني ... كنت معذّبة ، وتاقت نفسي للموت . نعم ، تمنّيت أن أموت وأتخلّص من هذه الآلام الهائلة التي دكّت صرح حياتي فأصبحت حطاماً متناثراً على صخور شاطىء مهجور ، ولولا والدتي المسكينة لكنت الآن في بقعة من التراب في ظلمات قبر .

« وعادت عجلةُ الحياة تدور من جديد ، فرحلت من الحيّ الذي كنت أقطنه لأبتعد عنك وأطوي هذه الصفحة من حياتي . وفي بيتنا المنعزل الجديد تبعثرت أحلامي ، وتركت نفسي في مهبّ الريح تتقاذفها الخواطر القاتمة ، وتنهال عليّ سياطُ الحرمان والجفاف اللاذعة .

« ثم توفّيت والدتي فخلّفتْ فتاةً محطّمة وحيدة ملقاة في ذلك الركن المهمل ككومة من القاذورات. بقيت وحيدة كالجدران العارية من الصور والزينة ماتت فيها معاني الحياة . مرّةً واحدة رأيتك بعد ذلك ... مرّة أخيرة !..

« كنتَ بصحبة زوجتك وطفليــــك الصغيرين الأشقرين، فتجسّمت لي صورة حيّة من الماضي لا تفنى إلاّ بفناء هذا الجسد. وكانت السعادة تطلّ من عينيــك، فحقدت عليك، وآلمني أن أراك سعيداً بينما أتضوّر أنا هنا شقاءً وتعاسة، فعزمت أن أنتحر وأتحرّر من ربقة آلامي. غير أنّي لم أجرؤ بعد أن فقدت القــوّة ... لم أقدر!

« هذه هي قصّتي بلا مساحيق ولا ألوان.

« إنّها قصّة امرأة لم يعرفها أحـد، حتى الرجل الوحيد الذي أحبّتـه بكلّ كيانها. أشعر الآن ببعض الراحة لأنّي أزحت عن صدري بعضَ ما تراكم عليه منذ سنين، فاعترفت لك.

« شيء واحد أبعثه إليك، هو القطرات الأخيرة من العطر الذي كنتَ تحبّه، والذي أحببته لأجلك.

« وداعاً يا مجدي، فإنّ اللحظات الأخيرة أوشكت على الانقضاء».

* *

وارتخت أصابعي المتوتّرة التي تتشبّث بالرسالة، واتّكأت على ظهر المقعد.

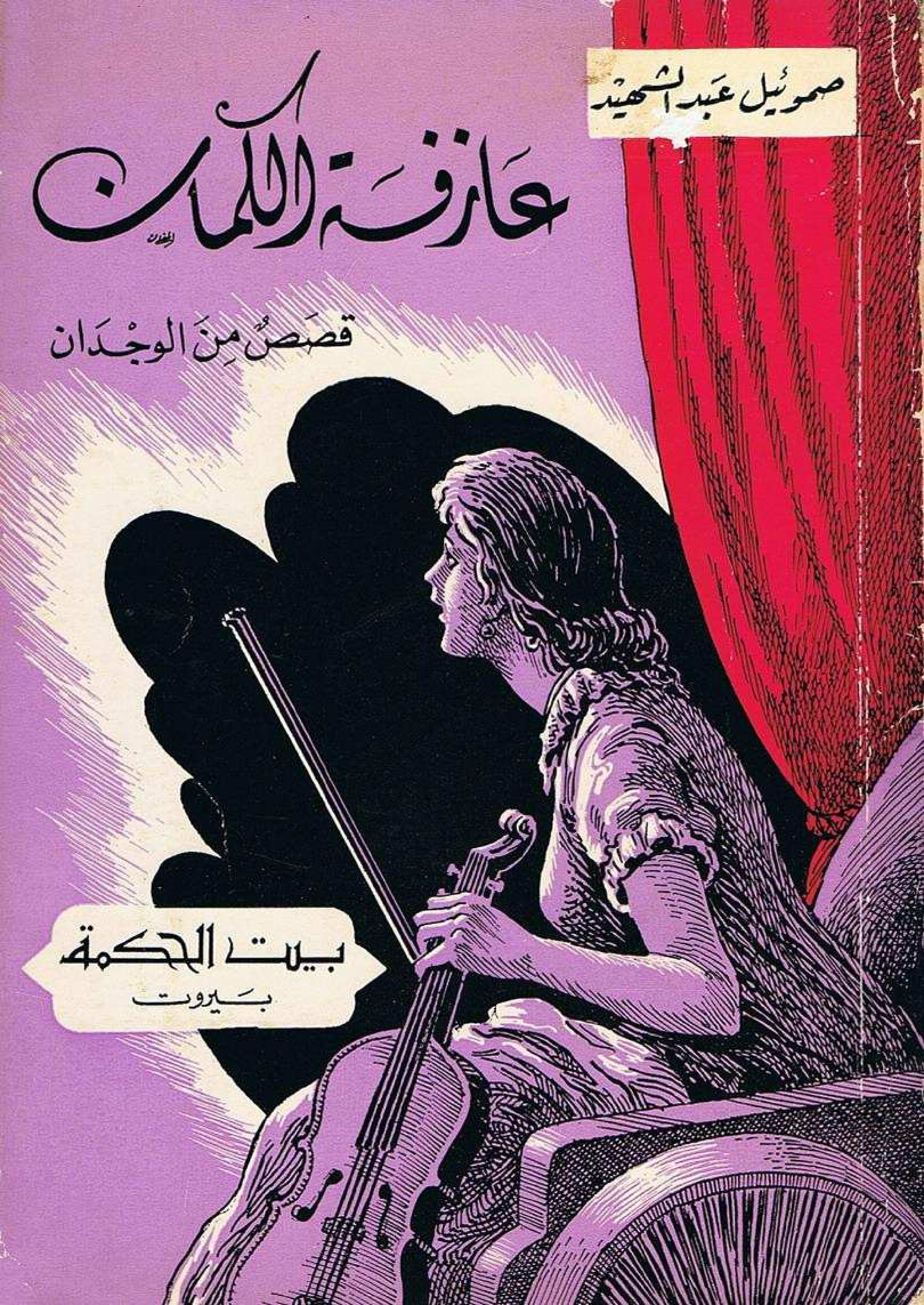
كانت شمس النهار تميل إلى المغيب، وموجات البحر تضرب صخور الشاطىء السوداء. حاولت أن أفكّر بأيّ شيء فلم أستطع، ورأيت نفسي أغمغم بهدوء:

ـ حقّاً هذا هو العطر الذي كنت أحبّه!..

محتوى الكتاب

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٣٠ آب (اغسطس) ١٩٧٤،
على مطابع دار غندور ، بيروت

٩٣/٨ - ١٩٧٤


صموئيل عبد الشهيد
عازفة الكمان
قصص من الوجدان
بيت الحكمة
بيروت

أسئلة على كتاب « عازفة الكمان »

تأليف : صموئيل عبد الشهيد

١ – عازفة الكمان

– ما هو الهدف الذي رمت اليه القصّة ؟
– هل رأيت في الرسّام شخصيّة تسعى الى الكشف عن حقيقة الفتاة المشلولة من غير أن تنخدع بالمظاهر الخارجية، أم لا؟

٢ – قلب الأمّ

– أين بدت لك عاطفة الأمّ بكلّ ما فيها من عمق وتضحية ؟
– هل لك ان تعطي خصائص شخصيّة الزوج ؟

٣ – من أجل الصغار

– أين بدت لك مظاهر القوّة الحقيقيّة في الأمّ ؟
– صوّر الصراع الداخليّ الذي نشب في صدر الأب بين حاجته المادية و كبريائه .

٤ – الابن البارّ

– ما هو الدرس الذي نتعلّمه من القصّة ؟
– هل تجد في القصّة ما يجعلك تتمثّل بالشابّ المخلص المحبّ ؟

٥ – أجير

– هل توحي اليك القصّة بوجود صراع بين البشر ؟ أين ؟
– كيف يمكن أن يتغلّب المرء على الفارق الطبقيّ من خلال القصّة ؟

٦ – خيط من أمل

– الانسان من غير هدف إنسان ضائع . فما الذي أنقذ حياة الفتاة في القصّة ؟
– كيف ارتسمت خطوط حياتها الجديدة ؟

٧ – القلب الكبير

– كيف يمكن أن تكون التضحية مصدر سعادة في هذه القصّة ؟
– لخّص القصّة بما لا يزيد عن عشرة أسطر ؟

٨ – انتصار الحياة

– إلى أي شيء يشير الرقم ١٢ في القصّة ؟
– ما هو مصدر السعادة في حياة بطلَي القصّة ؟

٩ – انسان جديد

– ما هو التحوّل الذي طرأ على بطل القصّة ؟
– لقد أصبح بطل القصّة بطلاً ، واعترف بذلك في قرارة نفسه في آخر القصّة . كيف ؟

يطلب الكتاب واسئلته من بيت الحكمة ، طريق فرن الحايك التحتاني ، الاشرفية ، بيروت ، تلفون : ٣٢٨٩٥٦